عبد العزيز صادق

نافذة على أفريقيا

عدد ممتاز



اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤٩٢] - أكتوبر - ١٩٨٣

رئيس التحرير أنيس منصور

عبد العزيز صادق

نافذة على أفريقيا



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

كلنا أفريقيون

بعد السادس من أكتوبر ١٩٧٣ راحت دول أفريقيا المستقلة ، الواحدة تلو الأخرى ، تقطع علاقاتها مع إسرائيل دعما لنا فى حربنا التحريرية . ولم يبق لإسرائيل من علاقات فى القارة الأفريقية إلا مع حكومتى جنوب أفريقيا وروديسيا العنصريتين ، وثلاث دول صغيرة (مليون أو نصف مليون مواطن) ، تقع تحت نفوذهما ، وداخل أراضيهما . بالإضافة إلى المستعمرات البرتغالية فى « أنجولا » و « موزامبيق » ، وهما بلدان لم يحصلا على الاستقلال بعد ، وتناضلان الآن من أجل التحرير . وبدأت تتردد فى أرجاء العالم الآن ، نغمة جديدة ، تربط بين جنوب أفريقيا وروديسيا والبرتغال وإسرائيل . وبين العنصرية والصهيونية .

□ الطبعة الأولى لهذا الكتاب – بهذه المقدمة – صدرت فى يناير ١٩٧٤ أى بعد أقل من ثلاثة شهور من حرب أكتوبر . وفى ذلك الوقت لم تكن جمهوريتا أنجولا وموزامبيق قد حققتا استقلالهما بعد .

ولا شك أن ما حدث ، يعنى أن تحولا عامًا ، وهامًا ، يجرى الآن فى أفريقيا . ويعنى أن قرارات الدول الأفريقية بقطع العلاقات مع إسرائيل ، أول خطوة جادة على طريق الالتزام والتضامن بين أبناء القارة الواحدة .

ثم جاءت الخطوة التالية فى مؤتمر وزراء خارجية دول أفريقيا ، الذى انعقد فى نوفبر ١٩٧٣ فى أديس أبابا ، والذى تقرر فيه تصفية المصالح الاقتصادية والثقافية وباقى العلاقات المتبادلة مع إسرائيل .

إن هذا الموقف الأفريقى الواحد ، يفرض علينا . أن نعرف قيمة ما حدث . ويفرض علينا أن نعطى هذا الموقف ما يستحقه من متابعة . وأن نعطيه من التنمية ما يكفل دعم علاقاتنا مع أفريقيا فى كافة المجالات .

إن أشقاءنا الذين وقفوا – إلى جانبنا – وقفتهم المجيدة جديرون باهتمام جاد ، وحقيق ، من جانبنا ، وجديرون بأن نعرفهم معرفة أفضل وأعمق .

وربما كنت واحدًا من الذين يعتبرون أن البداية الجادة للمعرفة الحقيقية لشعب ما ، تأتى عن طريق دراسة أدبه ، وفنونه ، وتراثه ، وثقافته ، وفكره .

ولعل هذا ما دفعنى لتقديم هذه الصفحات التى أحاول من خلالها تعريف القارئ العربى بكتّاب ومثقفى أفريقيا . ومن خلال شخصياتهم وحياتهم وإبداعهم ، يتعرف على ثقافة وفكر وتراث دول القارة التى ننتمى إليها .

على صفحات هذا الكتاب نلتقى بعشرة من أبرز وأشهر كتّاب أفريقيا المعاصرين . كل واحد منهم مناضل من أجل بلده ، ومن أجل أفريقيا أيضًا . خمسة من هؤلاء العشرة فازوا بجوائز « لوتس » للأدب الأفريقى الآسيوى خلال الأعوام من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٣ وفاز سادسهم بجائزة عام ١٩٧٥ تقديرًا لجهدهم الإبداعى الخلاق . .

السمة الواضحة لهؤلاء الكتّاب ، أن أيًا منهم لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب . كل منهم اضطرته ظروف الحياة أحيانًا ، إلى نحت الصخر بأظافره ، ليشق طريقه فى الحياة . وبرغم المعاناة ، وبرغم كل الظروف الصعبة التى يعيشها قومه ، ويعيشها بلده ، استطاع بالموهبة الأصيلة أن يصبح نجمًا فى عالم الأدب والثقافة على المستوى العالمى .

فى بداية هذا القرن ، كانت أفريقيا تعيش فى محنة ، دفعت شاعر الهند الكبير رابندرانات طاغور ليطلق صيحة احتجاج تقول :

عصائد البشر . .
تسللوا إليك وانقضوا
أولئك الصيادون
الذين فاقت قسوتهم ظلمة غاباتك
فصار أثر جسدك المسحوب فى الغابة
موحلا بالدمع . . والدم . .

وإذا كانت محنة أفريقيا قد هزت طاغور فى الهند ، فإنها أثرت فى حاسة الإبداع الأدبى والفنى فى أفريقيا . وكان على الإبداع الأفريقى ، أن يعرب – بكل الصدق – عن الظروف السياسية والتاريخية التى تعيشها أفريقيا .

وعندما نتأمل الأدب الأفريقى ، فإننا نلمح فيه بوضوح ، آثار الاستعمار والآلام المتصاعدة لمخاض قيم وأفكار جديدة . والندوب العميقة الموجعة للتفرقة العنصرية ، ومشكلة اللون ومشكلة البحث عن ذاتية مميزة . كل هذه الموضوعات ، طرقها أدب يثير الدهشة بحيويته وخصوبته .

وأبرز ما يميز الإبداع الأفريقى فى ثرائه وخصوبته ، هو الاعتزاز بالانتماء

لأفريقيا . وربما نحس بهذا ، فى همسة رقيقة لشاعرة موزامبيق « نويميادى صوصه » حين تقول :

ياأفريقيا ، ياقارتى ، غامضة ، وبدائية
أياعذراى المغتصبة !
ياأمى ! . .
كيف ظللت طيلة ذلك الوقت منفيّة
بعيدًا عنك ؟ . .
مغتربة ، نائية ، مستوعبة فى ذاتى ،
تائهة فى شوارع المدينة الحبلى بالغرباء
يا أمى ، غفرانك . .
أنا لا أستطيع . .
لا أستطيع أن أتنكر .
للدم الأسود . .
الذى ملأت به عروقى . .

إن كتاب أفريقيا – بإبداعهم – استطاعوا أن يلفتوا أنظار العالم إلى أدب جديد بدأ يثير اهتمام الأساتذة والطلبة فى كل جامعات العالم . بل لقد وصل الأمر إلى أنه يندر الآن خلو أى جامعة من قسم خاص للدراسات الأفريقية .

فى أقل من عشرين سنة ، استطاع أدب أفريقيا . المتفجر بالحيوية ، أن يكشف للقراء عن سيطرة متمكنة على الشكل الأدبى وأن يكشف عن كتاب أحرار متحررين . تتميز أعمالهم بنضارة وتنوع ، وتتسم بشخصية متميزة تثير الإعجاب .

ولم يكن غريبًا أن تضطلع دار نشر واحدة فى لندن . بإصدار سلسلة تحت اسم «كتّاب أفريقيا» ظهر منها – حتى الآن – أكثر من مائة وثلاثين كتابًا .

ولكن الغريب حقًّا .. أن المكتبة العربية تكاد تخلو من مثل هذه الكتب باستثناء كتب معدودة ومحدودة لروايات أفريقية مترجمة .

لقد آن الوقت لجهد بناء ، فى الانفتاح على أدب أفريقيا الذى شد انتباه العالم . ولقد آن الوقت لأن تعرف أفريقيا من خلال الفكر ، والثقافة ، والتراث .

بجهد متواضع ، أحاول فى هذا الكتاب . أن أساهم فى معرفة أفريقيا .. إيمانًا منى بأننا .. كلنا أفريقيون .

عبد العزيز صادق

الدجاجة تريد أن تبيض !

أخذنا نعتاد الحياة فى منطقة الشارع الثانى . أخى وأختى وأنا . كانت الشوارع والطرقات شيئًا جديدًا بالنسبة لنا . كان ذهنى يتساءل : لماذا يبنى الناس بيوتًا كلها تقع فى خط مستقيم ؟ ولماذا يذهب الناس إلى جدول فى مبنى صغير ليقضوا حاجاتهم .؟ ولماذا يحب الناس أن ينعزلوا عن الآخرين فيقيموا بينهم سياجًا .؟ لم يكن الحال هكذا فى قرية موبانتق . فلم يكن للبيوت أى نظام . وكنا نتزاور . ونستطيع أن نجلس كلنا حول النار التى يستعملها الجميع . ونقص الحكايات حتى يصيح الديك . وليس الحال كذلك فى الشارع الثانى .

« من رواية فى الشارع الثانى »



● ازكيل مفاهليلى ●

الملونون والبيض .. الأفريقيون والهنود .. الأفريكان والانجليز .. كلهم حشدوا معا فى بلد واحد اسمه جنوب أفريقيا .

* * *

ويل للملون . ويل للأفريقى ، ويل للهندى .. ويل للافريكانى .. ويل لهم جميعا من البيض والانجليز . ويل لهم جميعا من صرامة وصلابة وقسوة قوانين التفرقة العنصرية التى سنها الرجل الأبيض بكل التعالى والغطرسة حتى لا يتساوى الأسود والأبيض .

لقد أقدم النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا على انتزاع أصحاب البلد من أراضيهم وأهليهم ، ليحيوا بعيدا فى المناجم ، والمزارع ، يعرقون .. وينحلون .. ويجفون .. كما يتخم الرجل الأبيض .. ويزداد ثراء .

والكاتب .. فى روايته « فى الشارع الثانى » .. يعود بذكرياته إلى فترة طفولته وصباه .. يصف الحياة فى المكان الجديد الذى نقلوا إليه قسرا ..

الكاتب هو « أزكيل مفاهليلى » الذى عاش عمره منذ الطفولة متنقلا .. هائما .. لايستقر فى مكان .. وهو فى انتقاله مضطر لذلك اضطرارا ..

ولد عام ١٩١٩ فى أحقر أحياء « بريتوريا » .. وقضى طفولته وصباه يحمل غسيل السادة البيض من بيوتهم إلى أمه لتقوم بغسله .. ومرة أخرى يحمله إليهم .. ليحصل على قليل من النقود يسلمها لأمه ، التى كانت مسئولة عن تدبير طعام أولادها الثلاثة .. ومسئولة عن إعالة زوج سكير شرس .. عنيف .. يضربها حتى الموت ..

وذات يوم . مرضت الأم .. ونقلت إلى المستشفى . واقتيد الأب الشرس السكير إلى السجن . واضطر الصبى وأخوه وأخته للانتقال ليعيشوا مع جدتهم وعمتهم .. وكانت كل منهما تعمل غسالة كأمه التى ماتت فى المستشفى .

وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره.. أتيحت له فرصة الالتحاق بمدرسة القديس بطرس فى « جوهانسبرج » ليتعلم القراءة والكتابة . وبعد أن أنهى هذه المرحلة الدراسية ، التحق بكلية « آدم » حيث حصل على دبلوم يؤهله للعمل كمدرس للغة الإنجليزية والافريكانية .

بين عامى ١٩٣٩ – ١٩٤٠ تلقى تدريبا على التدريس والتعليم فى معهد تديره هيئة الإرساليات الأمريكية . وبين عامى ١٩٤١ – ١٩٤٥ اشتغل كاتب حسابات . وكاتب اختزال وآلة كاتبة ، بالإضافة إلى قيامه بتعليم العميان فى معهد قرب جوهانسبرج . ومع كل هذه الأعمال فى وقت واحد – ليحصل على لقمة العيش – استمر فى دراسته . فهو بين عامى ١٩٤١ – ١٩٤٢ كان يحضر لشهادة المعادلة بجامعة جنوب أفريقيا . بعد دراسة بالمراسلة . وبين عامى ١٩٤٥ – ١٩٥٢ كان يقوم بتعليم اللغتين الإنجليزية والأفريكانية فى المدرسة الثانوية فى « أورلاندو » بجوهانسبرج . وفى نفس الوقت استمر يدرس بالمراسلة فى جامعة جنوب أفريقيا حتى حصل على درجة البكالوريوس بالإنجليزية عام ١٩٤٩ فى علم النفس والشئون الأفريقية .

فى عام ١٩٥٢ صدر قرار من حكومة جنوب أفريقيا بحرمانه من التدريس ففصل من المدرسة .

السبب :

قيادته لحملة معارضة لسياسة مصلحة تعليم « البانتو » . وطالب – فى حملته – بمساواة التلميذ الأسود بزميله الأبيض . وكانت سياسة البانتو تعمد إلى تخفيض المستوى التعليمى للتلاميذ الأفريقيين .

فى عام ١٩٥٥ حصل على درجة البكالوريوس فى الأدب الإنجليزى . حصل عليها – كالعادة – بالمراسلة . ! !

وبعد أن داخ مفاهليلى فى عدة أعمال غريبة ومتنافرة ، التحق بالعمل فى مجلة « الطبول » كمحرر أدبى . وكمساعد رئيس التحرير . وكمحرر سياسى أيضًا .! استمر فى هذا العمل حتى عام ١٩٥٧ .

وفى نفس الوقت - كالعادة - كان يحضر لرسالة الماجستير فى جامعة جنوب أفريقيا . وحصل عليها عام ١٩٥٦ وموضوعها « الشخصية غير الأوربية فى الرواية الإنجليزية » .

فى عام ١٩٥٧ نفى مفاهليلى نفسه - مضطرا - إلى نيجيريا . وهناك قام بتعليم اللغة الإنجليزية فى مدرسة للنحو تابعة لجمعية إرسالية الكنائس . وإلى جانب هذا ، كان يدرس الأدب الإنجليزى بجامعة ايبدان بقسم الدراسات الحرة ، وقسم الدراسات بالمراسلة . ثم أصبح محررًا فى مجلة « أورفيوس الأسود » . وساهم فى إنشاء « نادى مبارى للكتاب والفنانين » . وتقديرًا لجهوده ، أصبح أول رئيس لهذا النادى الثقافى الذى اشتهر خلال فترة قصيرة .

فى عام ١٩٦١ أصبح مديرًا للبرنامج الأفريقى لحرية الثقافة بباريس ، والذى أصبح الآن يطلق عليه اسم : « الجمعية الدولية لحرية الثقافة » . هذا المنصب أتاح له فرصة السفر والتنقل بين الدول الأفريقية ، وإقامة مراكز ثقافية ، ومراكز للأدباء فى كل من نيجيريا وكينيا .

فى عام ١٩٦٥ التحق مفاهليلى بهيئة التدريس بجامعة « نيروبى » فى كينيا ، كمحاضر للأدب الإنجليزى . وفى العام التالى سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية على حساب منحة من بجامعة « دنيفر » بولاية « كلورادو » كزميل مدرس بالقسم الإنجليزى ، وفى نفس الوقت للتحضير لدراسة الدكتوراه فى « الكتابة الإبداعية » .

فى عام ١٩٦٨ حصل على درجة الدكتوراه عن روايته « الهائمون » . الغريب .. أنه اضطر لتقديم الرواية للحصول على الدرجة ، بدلا من كتابة رسالة مطولة . وكانت مغامرة غير مأمونة . ولكنه فوجئ بنجاح لم يكن يخطر له ببال .

بين عامى ١٩٦٨ - ١٩٧٠تولى التدريس بالقسم الإنجليزى فى جامعة زامبيا بمدينة « لوزاكا » العاصمة . وهناك أيضًا تولى الإشراف على الحلقات الدراسية للأدب الأفريقى .

فى عام ١٩٧٠ عاد مرة أخرى إلى جامعة « دنيفر » كأستاذ مساعد فى القسم الإنجليزى . بالإضافة إلى عمله كنائب رئيس تحرير مجلة « أفريقيا المعاصرة » التى تصدرها الجامعة .

مشوار طويل .. طويل .. استغرق معظم سنوات العمر !

كاتب طوح به السفر كل مكان . شقت عليه الحياة فى بلاده ، وقذفته خارجها ..

وقد صور معاناته بكل الصدق فى روايته « الهائمون » التى يقول عنها :

« أردت فيها أن أعبر عن حياة الكاتب فى المنفى . وهو يبحث عن بلد يتبناه .. ويستقر فيه ، ليكتب فى هدوء .. أردت أن أصف للقارئ كيف يفقد الإنسان إحساسه بالزمان والمكان .. وكيف يفقد الإحساس بهويته . إن الإنسان يجد نفسه أشبه بالدجاجة حينما تبحث عن مكان تبيض فيه .. لترقد على بيضها حتى يفقس وتخرج الكتاكيت الصغيرة إلى نور الحياة ! ! » .

* * *

أزكيل مفاهليلى .. الذى بدأ تعليمه فى سن متأخرة ، كان يقرأ كثيرًا ليثقف نفسه وليتعلم . تعلم من روايات تشارلز ديكنز ، وريتشارد رايت .

وتعلم من القصص القصيرة التى يكتبها الأمريكيون السود . وتعلم من الروايات والقصص القصيرة لكتاب روسيا . لقد انفتح عقله على الغرب والشرق .

وعندما تسأله .. متى بدأت تكتب ؟ .

فإنه يجيبك فى ابتسامة حلوة :

« بدأت الكتابة عام ١٩٤٠ وأنا فى العشرين من عمرى . فى تلك السن . كانت الأمور فى ذهنى مشوشة . ! كنت أعيش فى ضاحية تبعد اثنى عشر ميلا عن جوهانسبرج . كنت أحيا فى عزلة عن الناس فى « الجيتو » . وكانت الكتابة بالنسبة لى نوعًا من المغامرة فى دنيا الأدب . وعندما كتبت لم تكن فى ذهنى أى نية للنشر . ولكن ذات يوم جمعت ما كتبت . وأرسلت الأوراق إلى دار نشر صغيرة بدافع من فضول . أردت أن أعرف رأى الآخرين فيما أكتب . وأعتقد أن الناشرين لهم من الخبرة ما يكفل لهم الحكم الصحيح والعادل » .

ثم يضيف أزكيل مفاهليلى قائلا :

كانت مفاجأة كبرى . ان يخطرنى الناشر باعتزامه نشر هذه القصص القصيرة فى كتاب . وهكذا صدر أول كتاب لى بعنوان « الإنسان .. يجب أن يحيا » يضم مجموعة قصص قصيرة وكان ذلك فى عام ١٩٤٧ .

ورأيه الآن فى هذه القصص – التى لا تمس قضية العنصرية – أنها كتبت فى مرحلة كان اهتمامه فيها موجهًا للناس . موجهًا إلى « الجيتو » الذى فرض عليهم أن يعيشوا فيه . موجهًا إلى أحلام الناس البسطاء وآمالهم وآلامهم أيضًا . كان اهتمامه بالناس كبشر ..

ولكن الفترة التى قضاها فى التدريس . جعلت صلاته بالناس أوثق وأعمق . وبدأ يحس بحقيقة الضغوط السياسية التى تحيط به وبالناس .

وبدأت يقظته التى ظلت مستمرة حتى اليوم . بدأت حساسيته الشديدة لحقيقة الأوضاع السياسية فى جنوب أفريقيا .. وحقيقة ضحايا هذه السياسة من الملونين والأفريقيين والهنود والأفريكان .

فى عام ١٩٥٩ صدرت أول رواياته الطويلة « فى الشارع الثانى » وهى سيرة ذاتية له . كتب جانبًا منها فى جنوب أفريقيا عام ١٩٥٦ . وأكمل نصفها الأول عام ١٩٥٧ ثم أكملها فى نيجيريا التى هاجر إليها مضطرًا .

فى عام ١٩٦١ صدرت له مجموعة قصص قصيرة بعنوان « الأحياء والموتى » . وفى عام ١٩٦٢ صدر له كتاب فى النقد الأدبى بعنوان « الصورة الأفريقية » . وكتاب آخر بعنوان « دليل الإبداع الأدبى » وقد صدر عام ١٩٦٦ .

فى عام ١٩٦٧ صدرت له مجموعة قصص قصيرة بعنوان « موقف حرج » . وأخيرًا صدرت روايته الطويلة « الهائمون » التى يعبر فيها عن تجاربه فى المنفى ، ومشاعره تجاه الناس الذين عايشهم فى البلاد التى هاجر إليها هائمًا لا يستقر له قرار .

أزكيل مفاهليلى الذى وصفه أحد النقاد بعبارة « إنه سيد كتاب المقالة الأفريقية » ، يوجه اهتمامه فى كتاباته إلى موضوعين :

الأول : أزمة المثقف الأفريقى .

والثانى : شعب جنوب أفريقيا .

إنه يكتب بروح الاحتجاج والرفض ، لتطويق شعبه بالحواجز العنصرية ، وأفظعها حاجز اللون ! وهو يتخذ هذا الموقف لأنه – بحكم مولده ونشأته – ينتمى إلى الأغلبية المضطهدة ولأنه واحد من الناس الذين فرض عليهم ذل قوانين التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا ، أرض التعصب

العنصرى الشائن .

وفى رأيه أن سرعة سير الحياة فى جنوب أفريقيا ، تؤدى إلى أن تسود القصة القصيرة لا الرواية الطويلة . إن القصة القصيرة – فى رأيه – أنسب أداة للاحتجاج فى مجال الأدب .

وفى رأيه أيضا .. أن القصيدة أداة مناسبة للاحتجاج والرفض .. ولكنه لا يملك موهبة الشاعر .. فيستبدل القصيدة بالمقالة عندما تضطره الظروف .

* * *

فى جنوب أفريقيا ، بلغ إحساس الحكم العنصرى بخطورة الإبداع الخلاق للجماهير – خاصة فى مجال الشعر – أن أقدمت السلطة على شنق العامل « فيوزيللى مينى » الذى كان يؤلف أناشيد للحرية . شنقوه للدور الذى قامت به أناشيده وأغنياته فى نضال الجماهير ! .

ويتساءل مفاهليلى :

« ولكن .. هل استطاع الشنق أن يخرس صوت فيوزيللى مينى ؟! أبدا .. إن إسهامه فى النضال مازال باقيا حيا .. ناطقا على ألسنة الجماهير الثائرة لا تكف عن ترديدها . تماما كما ينشد المقاتلون الذين يحملون السلاح فى معركتهم من أجل الحرية والعدالة والمساواة » .

إنه يقول ذلك مدللا على أصالة الخلق الفنى الجيد . ثم يضيف :

عندما ألتقى بكاتب يقول لى : إن الشعب غير قادر على أن يفهم فنى .؟ أرد عليه قائلا : إن فنك – ياعزيزى – قائم على أساس خاطئ . إنه غير قائم على نضال الشعب ومثله العليا . إنك أنت الذى لا تفهم الشعب !! .

هذا جانب من اهتماماته بأزمة المثقف الأفريقى . يضاف إليها محاولاته المتعددة فى نشر ما يكتبه الموهوبون فى أفريقيا . فقد أشرف على نشر كتاب

« قصص أفريقية معاصرة » عام ١٩٦٤ وكتاب « الكتابات الأفريقية اليوم » .. الذى صدر عام ١٩٦٧ والذى يضم مختارات لما يقرب من أربعين كاتبا أفريقيا ، لوجدنا فى فهرس المعلومات عددًا كبيرًا من هؤلاء الكتاب – من بينهم مفاهليلى – عبارة : « لا يمكن نشره أو اقتباسه فى جنوب افريقيا » .

إن مفاهليلى يناضل لخلق ثقافة للكادحين . ثقافة تمزج بذكاء بين القديم والحديث . إنه يرى أن الثقافة التقليدية فى بلده قد هوت قواعدها تحت أقدام الغزاة . وتحت مطارق الصناعات الحديثة . هوت تحت أقدام المهاجرين الذين جاءوا ليخربوا حياة الأسرة ، وليخربوا المجتمع الأفريقى فى بلده . إن القوانين العنصرية قضت على الثقافة والعادات والتقاليد . ومن رأيه أن تتجه كل الجهود إلى هدم البناء السياسى للحكم الفاشى القائم الآن فى جنوب أفريقيا ، ولتتحقق المساواة بين كل الألوان .

إن الصورة الآن فوق أرض التعصب العنصرى البغيض تترجمها هذه الكلمات :

« فى الموت وحده .. تتحقق المساواة الشاملة .. بين الأبيض والأسود » .

* * *

والآن ..

بعد أن استقر الكاتب الهائم فى مكان يكتب فيه بهدوء ..

وبعد أن وجدت الدجاجة مكانًا تبيض فيه ، وترقد على البيض حتى يفقس وتخرج الكتاكيت الصغيرة إلى نور الحياة .

وبعد أن استقر مقامه فى أمريكا يشغل منصبًا غاية فى الاحترام . وبعد أن كف عن الانشغال بأكثر من عمل فى وقت واحد ليحصل على مطالب الحياة ..

بعد هذا كله .. هل توقف عن النضال من أجل قومه ، ومن أجل وطنه ، ومن أجل افريقيا .؟

أبدًا ..

فالنضال مستمر ..

ولكن ما يشغل نضاله الآن . هو محاربة المحاولات المدمرة ، التى تحاول – باستماتة – أن تعزل الأدب الأفريقى ، عن المواطن الأفريقى نفسه . وعندما يقول الأدب الأفريقى ، فإنه يعنى : الذين يكتبون بالأفريكانية فى بلده جنوب أفريقيا . والذين ينظمون الشعر بالبرتغالية فى أنجولا وموزامبيق . والذين يكتبون أفكارهم بالعربية فى السودان وشمال أفريقيا .

يقول :

« بصرف النظر عن درجة اللون . واللغة والعقيدة الدينية والفكر السياسى . وبصرف النظر عن الانتماء لوطن ما . كلنا أشقاء ، كلنا أبناء قارة واحدة . كلنا أفريقيون » .



وشهرته : كالونجانو

وهذى حالنا نحن
نعانى قسوة الحرمان
مقيدين ....
ممزقين ...
مكممين ...
فى الأرض التى هى أرضنا

« من قصيدة : الأرض تميد ! »

قبل أن نتعرف عليه كشاعر ، يجدر بنا ان نتعرف عليه كثائر ، فهو واحد من أبرز قادة جبهة تحرير « موزامبيق » ، وهى جبهة تؤمن – عن يقين – أن تحرير الأرض لا يمكن أن يتحقق إلا بقوة السلاح ، وبالنضال المسلح .

ومنذ عرفه الناس كشاعر.. وكثائر ، أطلقوا عليه اسم «كالونجانو» ،



• مارسلينودوس سانتوس •

وربما كان هذا هو اسمه الحركي فى مرحلة الكفاح تحت الأرض ، وعندما برز وأصبح واحدًا من قادة جبهات التحرير ، تمسك الناس باسم «كالونجانو» ، وأصبح هو أيضًا معتزًا بهذا الاسم.

إذا استعرضنا حياته بإيجاز ، فإن مولده كان يوم ٢٠ مايو ١٩٢٩ فى « لومبو » قرب « لورنزو ماركيز » فى موزامبيق ، البلد الذى يناضل من أجل تحرير نفسه من الاستعمار البرتغالى . مارسلينو ، ابن واحد من عمال السكة الحديد . فى صباه دخل مدرسة الليسيه فى موزامبيق . وتدرج حتى أنهى تعليمه الثانوى . ثم التحق بجامعة « لشبونة » ، فى البرتغال . فى أثناء حياته الجامعية ، كان يكتب المقالات ، ويشترك فى مظاهرات الطلبة . وكان حماسه واندفاعه أمرًا لفت انتباه البوليس السياسى الذى يأتمر بتعليمات الطاغية « سالازار » .

فى سنة ١٩٥١ انتقل إلى باريس ليلتحق بجامعة السوربون . وليدرس علم السياسة والاجتماع . لقد كان يحس فى أعماقه بالمهمة الوطنية التى نذر لها نفسه منذ شبابه . ودفعه هذا الإحساس لدراسة العلوم السياسية .

الأمر بالنسبة لكل المثقفين فى موزامبيق بصفة عامة ، وبالنسبة للشعراء بصفة خاصة ، أن السيطرة الاستعمارية قد تغلغلت هناك من خلال فكرة القضاء على « طرق الحياة والتفكير » لدى الشعب . وفى الوقت نفسه إقحام « البديل » ليحل مكان التراث المتوارث عبر سنوات التاريخ . و « البديل » عند المستعمرين -- عند كل المستعمرين – هو بث أفكار أجنبية ، وقيم مستوردة . الأفكار والقيم شىء مشوه ، لا يخدم إلا أهداف المستعمرين ، ولا يحقق إلا غايات المستغلين .

من هنا نستطيع أن ندرك مغزى اهتمام « مارسلينو » أو « كالونجانو »

بدراسة العلوم السياسية فى مطلع شبابه ، لأنه بلا شك كان يعد نفسه للنضال من أجل وطنه وشعبه .

يؤكد هذا .. فهمه لطبيعة شعب بلده ، ومدى افتتان الناس بالقصيدة المنظومة ، ومدى تأثر الجماهير بالشعر .

لهذا .. فإنه فى الوقت الذى حرص فيه على التهام كل ألوان المعرفة الإنسانية .. حرص على أن يكون شاعرا .. بعد أن لمس فى وجدانه موهبة الشاعر . وحرص على أن تكون القصيدة فى يده وعلى لسانه .. فى قوة الرصاص . إنه يوجه قصيدته كما يوجه البندقية . إنه يوجهها بكل الدقة إلى قلب العدو المستعمر .

ولعله لهذا السبب .. استطاع أن يجعل العالم يحس بالصدق الثورى فى قصائده . ولهذا السبب أيضًا نجد أن معظم قصائده قد ترجمت إلى أكثر من لغة من لغات العالم .

أتيحت الفرصة لكالونجانو ، لزيارة بلاد كثيرة فى مختلف أرجاء العالم . ففى عام ١٩٥٥ شارك – كشاعر – فى احتفالات الشباب التى أقيمت فى « وارسو » عاصمة بولندة . وفى تلك الاحتفالات وجهت إليه دعوة من شباب الصين لزيارة الصين الشعبية . وفى عام ١٩٥٧ شارك فى احتفالات الشباب فى موسكو . وفى عام ١٩٥٨ شارك – كأديب – فى المؤتمر الأول للكتّاب الأفريقيين الآسيويين الذى عقد فى مدينة « طشقند » عاصمة جمهورية أوزبكستان السوفيتية .

قبل أن نستكمل استعراض حياته العامة ، أود أن ألفت الانتباه إلى قرار حكومة فرنسا الذى صدر عام ١٩٥٦ بطرد دوس سانتوس من فرنسا قبل أن يستكمل الحصول على شهادته من جامعة السوربون .

وفى عام ١٩٦١ انتخب سكرتيرًا عامًا لجبهة تحرير موزامبيق المعروفة باسم « فريليمو » ، وفى العام التالى حضر إلى القاهرة للمشاركة فى المؤتمر الثانى للكتاب الأفريقيين الآسيويين . وبعدها شارك فى كثير من المؤتمرات والاجتماعات بحكم منصبه القيادى البارز فى جبهة التحرير التى تقود النضال المسلح من مركز قيادتها فى جمهورية « تنزانيا » الأفريقية .

ربما يكون من الضرورى والمفيد ، أن نعطى للقارئ فكرة عن موزامبيق ، التى تناضل لكى تتحرر من الاستعمار البرتغالى ، والتى يقوم دوس سانتوس بدور قيادى فى هذا النضال المسلح من أجل تحريرها .

تقع موزامبيق على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، فى الجنوب ، تجاه جزيرة مالاجاشى « مدغشقر سابقًا » . لموزامبيق حدود مشتركة مع كل من جنوب أفريقيا العنصرية ، وروديسيا العنصرية ، ومالاوى الخاضعة لنفوذ الدولتين العنصريتين . ولها حدود مشتركة مع تنزانيا حيث توجد قيادة النضال المسلح .

ويمارس الاستعمار البرتغالى هناك ، أبشع صور الاستغلال والاضطهاد والقهر ، إلى حد يصفه الشاعر الأديب السوفيتى الكبير « أناتولى سوفرونوف » بقوله :

« مستعمرة ينهب منها البرتغاليون كل شيء بلا ثمن ، ابتداء من جوز الهند ، إلى الحياة البشرية !! »

إن الوصف غاية فى صدق التصور . وعلى أساس هذا التصور حدد المستعمرون علاقتهم بالشعب المقهور ، واتخذوا من الوسائل ما يكفل لهم بقاء الأوضاع على ما هى عليه . وقد تحقق لهم ما أرادوا من استغلال ثروة البلاد الدفينة . وتسخير الأهالى فى استخراجها من باطن الأرض .

مارسلينو يصور لنا الحقيقة فى قصيدته « الأرض تميد » التى قدمت فى البداية بعض أبياتها . يقول :

ما كان أقساها الحياة
على الأرض التى فيها ولدت !
القطن أنت زرعته
وزرعت جوز الهند والزيزال
وصنعت بجهدك ثروة « الشركة »
وشيدت المدينة
ومهدت الطريق
وبنيت الميناء
لقد حاولت أن تنحت فوق الأرض وجه إنسان
ولكن كل جهودك لم تكد تمنحك سوى جواز مرور
ونحن جميعًا مثلك تمامًا
محرومون
مقيدون
ممزقون
مكممون
فى الأرض التى هى أرضنا .

إنه يكشف لنا حقيقة الطابع الاستغلالى للطاقات البشرية بأتفه ثمن . بمجرد بطاقة تسمح لصاحبها بعبور الحدود الخاصة لقريته ! ! وذلك لأن قوانين المستعمرات تقضى بعدم السماح لموزامبيقى بأن يغادر قريته ما لم يكن

يحمل إذنًا بالمرور ! وفى المدن ، لا يسمح للأفريقى بالخروج ليلا إلا بتصريح خاص يسمح له بالخروج . ! !

الموزامبيقى ، يساق ككل أبناء المستعمرات إلى المناجم ، حيث يلقى المئات منهم بعد المئات حتفهم . ولكن ماذا يهم المستعمر إذا ما انهار منجم على العاملين فى جوفه ؟

الشاعر المناضل دوس سانتوس – فى نفس القصيدة الأرض تميد – يصور من خلال نسيجها الفنى . بحساسية وذكاء شديدين ، حكاية العمال من قومه وكيف يتعرضون للموت . وكيف حاولوا الهرب من المصير الدامى . ولكن الأوامر كانت صريحة وحاسمة . بنفس قوة وحسم « الشركة » البرتغالية الاستعمارية المستغلة ، الأوامر كانت أن يعود العمال ، ولا يهم أن يموتوا . يقول « كالونجانو » فى قصيدته :

الأرض جميعًا قد مادت :
وقع انفجار كان أول ماوقع
وأحس العمال جميعًا ..
بالعالم ينغلق عليهم .
وجرى الرجال وهرولوا
ولكن .. ما الذى وجدوا
بحثًا عن الشمس ؟
وجدوا .. الشركة !
كغراب ضخم قد ألقى ظلاله
وتوارت خلف جناحيه الشمس !

وصاح بصوت أزعجهم
استمروا ..
عليكم ان تستمروا !
عودوا ..
عودوا إلى جوف المنجم !
ثم ..
دوى الانفجار الثانى
وجرى الرجال وهرولوا
اذا مادت الأرض بهم
وتساقطوا ..
وسط دهاليز المنجم
وتلوت الأجساد ..
فى الغازات وكتل الفحم
وتهاوت آمال الرجال
آمال الزنوج العاملين
فى الحياة !

« مارسلينودوس سانتوس » ، لا يكتب مثل هذه القصيدة بروح شاعر يحلق فى آفاق الخيالات الوردية ، وإنما هو يجند قلمه ، وكلمته ، وقصيدته ، كما يجند المقاتل للمعركة .

إن الكلمة والرصاصة – فى نظره – يتساويان تمامًا . عندما يكون الهدف واضحًا ، والإرادة حاسمة . والصدق ينبع من إدراك الشاعر – بكل العمق

والوعى - بأبعاد المأساة التى تهدد فريقًا من بنى وطنه ، بالفناء على أيدى الطغاة المستعمرين .

* * *

إن الأدب فى موزامبيق - حكمها حكم أى بلد لم يتحرر بعد - قد مر بثلاث مراحل متعاقبة ، ومتداخلة فى نفس الوقت :

المرحلة الأولى : هى مرحلة الإيقاظ الجماهيرى . وتبصير الشعب بحقيقة الواقع الأليم الذى يعيشه . وتفهم أبعاد هذا الواقع سياسيًّا . واجتماعيًّا . واقتصاديًّا . وإدراك العوامل التى شكلته على ما هو عليه .

والمرحلة الثانية : هى مرحلة الرفض . والاحتجاج الصارخ . ثم . . التمرد !

أما المرحلة الثالثة : فهى المرحلة التى تصحب الثورة ، وغالبًا ما تكون الثورة مسلحة . فى هذه المرحلة يعبر الأدب عن أهدافها التحررية . وعن مضامينها السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية . وفى هذه المرحلة يمهد الأدب للمرحلة الرابعة . مرحلة « ما بعد الاستقلال » . ويقدم الأدب للجماهير رؤى المستقبل .

وموزامبيق . بعد ٤ فبراير ١٩٦١ ، دخلت المرحلة الثالثة ، عندما اتخذت تلك المبادرة التاريخية التى تشكل اللحظة الراهنة من مستقبلها ، عن طريق الكفاح المسلح . ومع هذه المرحلة ، بدأ الشعر ينير أمامها آفاقاً جديدة . وبدأ « الرصاص يتفتق عن الأزهار » . وبدأ دوس سانتوس يطالب - بالأسلوب الذى طالب به إيلوار - بكتابة الاسم الذى يترجم عن استرداد الكرامة ، فيقول :

نعم يا أمى

يجب . .
يجب أن نزرع
على طرق الحرية
تلك الشجرة الجديدة
شجرة الاستقلال الدامى

ويبدأ الشاعر فى تصور المستقبل بعد الثورة . . وتنقلب رؤاه إلى أحلام :

الأم السوداء . .
تضع طفلها فى المهد
وتنسى . .
أن حبات الذرة تموت فى الأرض
وأن كرار الحزين قد فرغ بالأمس
وتحلم
تحلم بعوالم جميلة
يذهب فيها ابنها إلى المدرسة
المدرسة التى يتعلم فيها الرجال
يخرج فيها ابنها ويلعب فى الشوارع
الشوارع التى يمشى فيها الرجال
عوالم جديدة . .
يستطيع ابنها أن يعيش فيها

ولكن الشاعر واثق من أن الحلم سيصبح حقيقة ، لأن المستقبل له الآن وجود فعلى . فهو محتوى فى الحاضر ماثل فيه . بل إن الشاعر على يقين من أنه

عن قريب سيسمع صيحة الابن ينادى أمه السوداء فى نشوة :

ابنك بات من الآن حرًّا يا أماه ! »

* * *

كالونجانو كمثقف ثورى ، يدرك أن التراث الأفريقى فى الفن والثقافة ، لم يفقد أثره فى وعى الناس ، بسبب تدهوره على أيدى البرتغاليين . لقد تعرض تراث بلده لحملة منظمة من التحقير على أيديهم . فإذا أضفنا إلى ذلك الظروف الاقتصادية التى صنعها المستعمرون فى موزامبيق ، لأمكننا أن نتبين مدى نجاح الحملة المنظمة لمحو هذا التراث تماماً .

برغم كل هذا ، أدرك مارسلينو بحسه كفنان موهوب شديد الوعى ، وأدرك معه زملاؤه الثوار المناضلون ، أدركوا أن تراث بلدهم لم يقض عليه تماماً ، لأن هذا التراث هو الذى شكل لأجيال طويلة ، خلفية الحياة الأفريقية فى صميم تكوينها .

ولكن المسألة لدى « سانتوس » لم تكن بهذه البساطة . وكان عليه أن يواجه الأمر الواقع بشجاعة .

كان الأمر الواقع يطرح أمامه حقيقة مؤلمة ومؤسفة . وهى أن حملات « التشويه » ، ومحاولات القضاء على « طرق الحياة والتفكير » ، ومحاولات إقحام « البديل » ، كل هذه الحملات والمحاولات ، أدت بالفعل إلى اغتراب كثير من الأفريقيين عن خلفيتهم الثقافية ، بل إن بعضهم وصل به الأمر إلى حد رفضها بصورة علنية !

وعندما تصل ضربات الاستعمار إلى هذا الحد ، فإنها تكون على وشك تدمير الإنسان . ومن ثم عمل الشاعر الثائر ، ورفاقه فى الكفاح ، على

مواجهة الحملات الموجهة للتراث الأفريقى والتصدى لها فى عمل شاق مرير. وكان التصادم حادًّا مؤلمًا.

إن الفن الموزامبيق ظل صامتًا طوال الأعوام الأخيرة من القرن الماضى، وخـلال فترة طـويلة من أعوام القرن العشرين. اللهم إلا بعض انطلاقات شعرية محدودة ومتفرقة. ولكنها لم تجد من يعنى بتسجيلها ونشرها، لأنها كانت قاصرة على مجال واحد متواضع، هو مجال الحياة اليومية للشعب.

ولكن الشعب لم يكف عن الخلق والتغنى بأغانيه وحكاياته وأشعاره الفولكلورية. وكلها تتم شفاهة تتناقل سماعًا، وبرغم كونها جزءًا من تراث الشعب الذى يبدعه على مر العصور، فهى معرضة للاندثار والضياع ما لم تلق الاهتمام من المثقفين. وكان لابد من إنقاذ هذا التراث ليدخل التاريخ من خلال الثورة.

وهذا ما حاوله الشاعر « دوس سانتوس » ورفاقه، وكان عليهم فوق كل هذا، أن يخلصوا الشعر من نغمة اليأس، وعدم التماسك، والافتقار إلى الثبات والصمود، مثل تلك الكلمات التى قالها أحد الشعراء فى قصيدة تقول:

ياللحزن الذى يملؤنى
عندما أرى هؤلاء الناس
« بأجولتهم الزرية فوق أكتافهم »
« وهم .. يموتون تعبًا ! .. »

بدلا من هذه المعانى التى تبدو واقعية فى وصفها لحالة التمزق وفقدان

الأمل فى موزامبيق ، تطور الشعر على يدى الثائر مارسلينو ورفاقه ، وتحول إلى الإدانة ، وإلى تعميق وعى الشعب بمدى الاضطهاد الذى يتعرض له . وإلى كشف واقع خداع الحضارة البيضاء التى غررت بكثير من المثقفين .

وأدرك مارسلينو أنه فى هذا التطور ، لا يجب أن تتحول القصيدة إلى منشور ثورى خطابى ، بل يجب أن تصاغ المعانى فى قصائد لها كل خصائص الشعر فنيًّا وفكريًّا ، وتحافظ على الشكل الشعرى ، وعلى الصورة المنسوجة بفنية وبراعة .

لهذا تميز شعره بالقصيدة الهامسة الفن ، الصارخة العنف .. مثلا فى قصيدته « إلى ابن بلدى » :

« أيها الابن الحافى القدمين »
ياابن بلدى ..
الدنيا فجة مرة
فى أطمارها البالية
والزنجى عاكف على الرمل منحنى الظهر
صبى أسود مثلك .
مات مقتولا
فى ذلك المستنقع الضيق
من حماة المستنقع العنصرى

هذا الصبى الأسود الذى مات ، يقول لنا الشاعر إن اسمه « همت تيل » . وإن قاتله هو نفس الذى ارتكب الجرائم الأولى ضد الأجداد :

ياابن بلدى ..

كان هناك جد بعيد
فى أرض شاسعة فسيحة
من وراء بحار عظيمة محيطة
حمل إليها أبناء أفريقيا
مخطوفين ..
فى مراكب تجار العبيد النخاسين
وهناك فلحوها وأخصبوها
هناك جد بعيد
على الأرض الأمريكية
التى بنتها الأذرع القوية
للعبيد السود
من أفريقيا ..

ويحذر الشاعر « دوس سانتوس » ابن بلده الجديد من نفس المصير فيقول :

همت تيل .. مات مقتولا
ولكن ما أحسه .. باق
مبعثرا فى مصيرك
همت تيل .. مات مشنوقا على شجرة
ولكن دمه السائل فريد فى القوة
إياك أن تنسى إلى آخر الزمان
أيها الصبى الحافى القدمين

* * *

فى رأى دوس سانتوس ، أن الشعر يهيئ صلة جديدة بين الفرد والمجتمع . وهو يعنى بذلك ظاهرة آخذة فى النمو مع النضال التحريرى لموزامبيق . ينمو بنفس الطريقة التى اتضحت بها فى النضال الثورى لشعوب أخرى . فأفراد الشعب فى موزامبيق أخذوا الآن فى تأكيد أنفسهم ، لا كأفراد منعزلين ، بل كأفراد يكونون مجتمعًا جديدًا . وهذا المجتمع سيختلف تمامًا عن المجتمع القديم . سيكون مجتمعًا متحررًا من كافة ضروب القهر . وسيكون الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع الجديد ، رجالا جددًا :

إخوة صغار
لبلد قديم ..

فى لقاء مع مارسلينو دوس سانتوس فى مدينة بودابست عاصمة المجر ، منذ أعوام ، وصف لى الرجال الجدد ، والمجتمع الجديد ، بقوله :

« إن خلق الرجال الجدد والمجتمع الجديد ، لا يمكن أن يتم أحدهما بمعزل عن الآخر . وفى رأيى أن الشعر هو أفضل لسان يعبر عن الحقيقة . فالشعر هنا أداة تعبير عن الإرادة . إرادة تأكيد القدرة الخلاقة للإنسان . ولكن فى الوقت ذاته ، توصيل لما تبدعه تلك القدرة إلى الآخرين ، ورؤية لاستجاباتهم . فنحن عندما نقف على وجود نفس الإرادة لدى الآخرين ، فإننا – بلا شك – نزداد صلابة وتصميمًا . وندرك فى الوقت ذاته ، أن تحويل الإرادة إلى فعل ، لا يتم إلا عن طريق المشاركة مع الآخرين ، بحيث يكون الفعل ، هو فعل الجماعة كلها » .

ويضيف دوس سانتوس قائلا :

« وأنتم فى مصر تدركون أكثر من غيركم هذه الحقيقة . إن مشروع الثورة

مشروع جماعى ، يتواجد الفرد فى إطاره ، ويعمل من أجل المجتمع . ويصبح المجتمع حيًّا . لأنه مجتمع يقوم على وجود أفراده ، ويحترم ذلك الوجود . والشعر – فى رأيى وربما يجىء هذا الرأى من طبيعة الناس فى بلدى – هو أفضل مرآة للشعور الجماعى ، ولروح التعاون التى تشيع فى النضال ، إن الشعر صوت للفرد والجماعة .

ومن خلال المقاتل فى سبيل الحرية ، يتكلم صوت الشعب . الفرد ينظم الشعر . ولكنه ينظمه بلسان شعب بأكمله . لا اختلاف هناك ، سواء كانت القصيدة مكتوبة بضمير الشاعر ، أو بلسان الجماعة » .

بهذه الكلمات ، كان كالونجانو يفسر لى ما جاء فى مقال سابق له كنت قد قرأته . وعندما تطرق حديثنا إليه ، سألته تفسيرًا وإيضاحًا .

ولعل أفضل تفسير وإيضاح لكلماته ، قصيدة له تتضمن كل ما جاء فى حديثه . القصيدة بعنوان « أنا أحيا » .. يقول فيها :

كلا ..
لا تبحثوا عنى
فأنا لست ضائعًا
أنا أحيا ..
قويًّا .. ملء صدرى لهيب
أتبع الدرب التى اختطتها الحرية
خلال أنياب الاضطهاد ومخالبه ..
أنا أعيش ..
فى شعبى

أطلق مدافعي وقاذفاتي
على الدرب المفضى للسلام

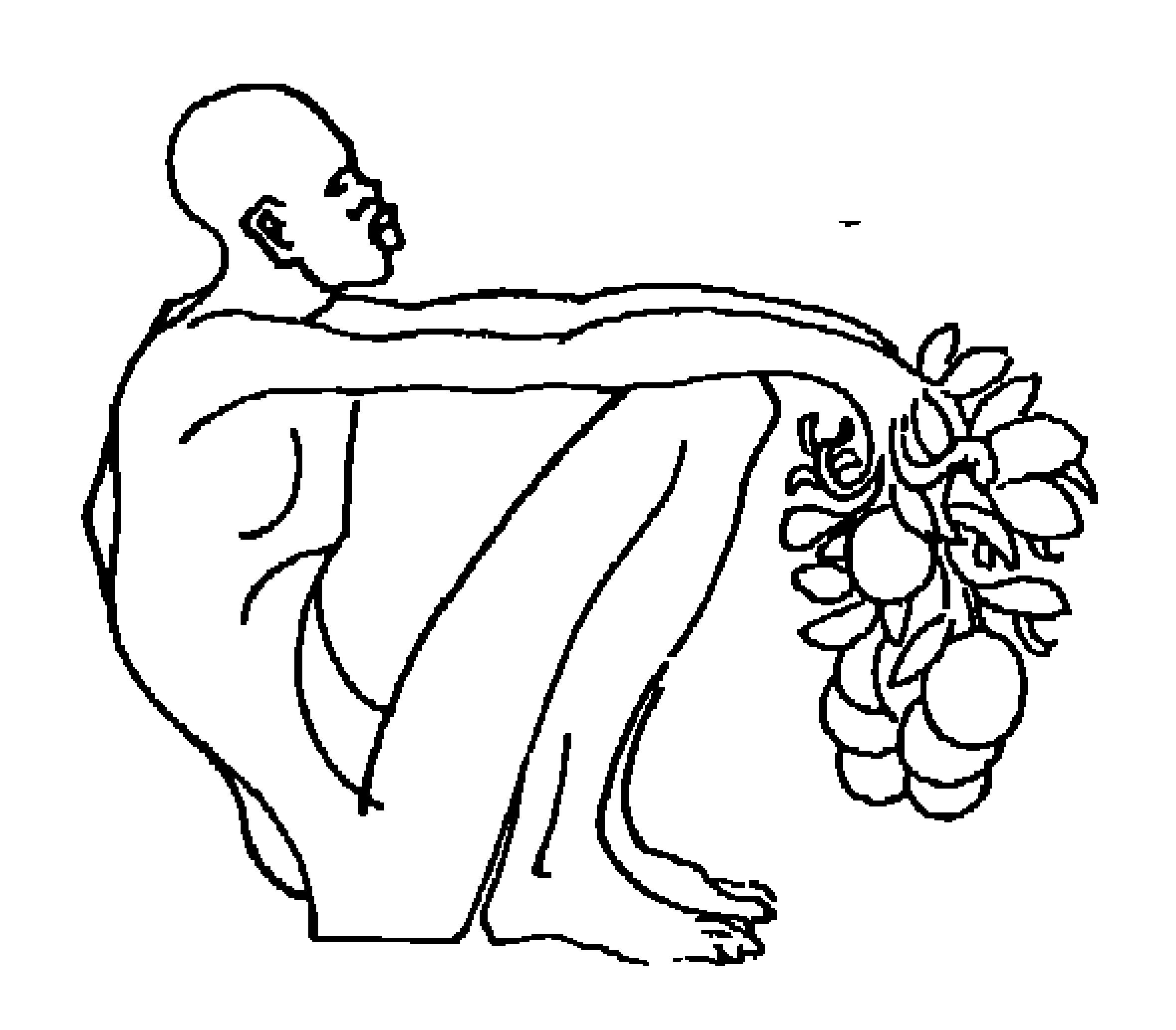
* * *

وهكذا تمكن مارسلينو.. كشاعر وكثائر ، من أن يشارك رفاقه الشعراء الثوار ، ورفاقه الثوار المقاتلين.. فى تسجيل المأساة الدامية التى يصنعها الاستعمار البرتغالى فوق أرض بلده . وما يعنيه ذلك من اضطهاد لشعبه .

إن مارسلينو دوس سانتوس ، لا يكتفى بالمشاركة فى النضال المسلح لشعبه ضد الاستعمار ، بل يحرض – بالشعر – أبناء بلده على العنف فى الكفاح . ليهبوا بمزيد من الضراوة لإجلاء البرتغاليين الغاصبين عن تراب موزامبيق ، ليصفوا وجه الحياة للبسطاء هناك ، وعندئذ يمكن أن يعيدوا بناء الحياة ، وإلى أن يحدث هذا سيظل « مارسلينو » الشهير بـ« كالونجانو » مناضلا بالرصاصة والقصيدة .

تقديرًا لهذه الصورة المشرقة ، منح مارسلينو دوس سانتوس جائزة « لوتس » للأدب الأفريقى الآسيوى عن عام ١٩٧٣ .

□ انتهى الكفاح المسلح بتحرير موزامبيق فى صيف عام ١٩٧٥ واصبح الشاعر مارسلينو دوس سانتوس نائبا لرئيس الدولة . وهو الآن وزير التخطيط فى حكومة موزامبيق .



سبع صنايع وبخت غير ضائع !

فات الوقت للفرح ..
كف الصياد يده ..
انفتح مجرى الحق من مواقد حمراء
وكف « أوجون » يده .. !
وبعد الرعب ، والموت والظلام
ربما .. يشرق فجر جديد

« من قصيدة : إيدانر »

الكاتب الذى نلتقى به على الصفحات التالية .. إنسان من طراز نادر فريد . ففى الثالثة والعشرين من عمره ، كان قد انتهى من دراسته بجامعة « ليدز » البريطانية ، وحصل على درجة الشرف فى اللغة الإنجليزية ، وفى أثناء الدراسة



● وول سوينكا ●

نشرت له الصحف والمجلات البريطانية ، قصتين قصيرتين بالإنجليزية . واحدة باسم « مدام اتيين » والثانية باسم « قصة مدينتين » .

بعد تخرجه ، التحق بوظيفة فى مسرح القصر الملكى البريطانى . كانت مهمته ، قراءة النصوص المسرحية . وخلال استغراقه فى هذا العمل على امتداد عامين ، كتب عدة مسرحيات .
وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، قدم له المسرح الملكى البريطانى مسرحيته القصيرة « تصميم » .

وفى نفس الليلة قدم نفس المسرح ، مقتطفات من مسرحيتى « بيت يانجيجى » و « رقصة الغابات » وفى نفس العام ، قدم له أحد مسارح لندن . مسرحيته « أهل المستنقعات » نفس المسرحية قدمت فى نفس العام فى «ايبدان» بوطنه نيجيريا ، بالإضافة إلى مسرحية أخرى له باسم « الأسد والجوهرة » .
واليوم ، وقد بلغ التاسعة والثلاثين (فى عام ١٩٧٣) ، يجمع النقاد الإنجليز ، على أنه أعظم كتاب المسرح المعاصرين فى أفريقيا . بل إنه – فى رأيهم – من أفضل من يكتبون بالإنجليزية اليوم .. فى أى مكان من العالم !

ومنذ بضعة أعوام صدر كتاب عن أعماله العديدة والمتنوعة ، بمقدمة تقول « إنه كاتب عملاق على مستوى عالمي . حققت أعماله نجاحًا فى كل مكان ، ونالت أكثر من جائزة » .
هذا هو « وول سوينكا » كاتب غرب أفريقيا الكبير . الذى يملك موهبة كاتب الدراما ، والشاعر ، والروائى ، وكاتب المقالة ، والقصة القصيرة . بالإضافة إلى موهبته كممثل ممتاز ، وموسيقى بارع ، ومخرج مسرحى عميق الوعى . تجاوز بكتاباته آفاق الإقليمية النيجيرية ، والآفاق الأفريقية أيضًا . فتخطى حدود القارة

إلى آفاق عالمية واسعة . واستطاع أن يغزو بإنتاجه مسارح الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

ولد « سوينكا » فى ١٣ يوليو ١٩٣٤ فى « أبيوكوتا » بالإقليم الغربى لنيجيريا ، لأبوين من قبائل « اليوروبا » . الأب ينتسب إلى « الإيجيبو » . والأم تنحدر من « الايجا » . تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة « سان بيتر » بين عامى ١٩٣٨ - ١٩٤٣ . ثم التحق بمدرسة النحو . وفى عام ١٩٤٦ تلقى تعليمه الثانوى بالمعهد الحكومى فى « ايبدان » . وخلال سنوات الدراسة كتب عددًا من القصص القصيرة قدمتها مؤسسة إذاعة نيجيريا فى الراديو . وفى عام ١٩٥٢ التحق بكلية جامعة ايبدان ، حيث استمر حتى عام ١٩٥٤ . وبعدها سافر إلى بريطانيا ليلتحق بجامعة « ليدز » التى تخرج فيها .

بعد التخرج - فى محاولة للبحث عن عمل - اضطر سوينكا لأن يعمل جرسونًا فى حانة . ثم كمدرس بعقد مؤقت محدود المدة ، وفى عام ١٩٥٨ تعين قارئ نصوص فى المسرح الملكى بلندن . وخلال هذه الفترة كتب مسرحية « أهل المستنقعات » ، والنص المبدئى لمسرحية « الأسد والجوهرة » . المسرحيتان قدمتا فى عرض واحد فى ايبدان عام ١٩٥٩ .

فى العام التالى ١٩٦٠ حصل سوينكا على منحة معهد « روكفلر » للأبحاث لمدة عامين ، وعاد إلى بلده بعد أن حققت أعماله المسرحية نجاحًا مرموقًا فى لندن ، وكانت نيجيريا قد أعلنت الاستقلال . عاد ليدرّس الفنون الدرامية فى أفريقيا . وأصبح محاضرًا فى كلية الآداب بجامعة ايبدان .

واحد من النقاد وصف عودة سوينكا إلى وطنه بكلمات تقول :

عودة سوينكا أشاعت الدفء فى الحياة المسرحية فى نيجيريا

وهذا صحيح .

فعقب عودته مباشرة ، أنشأ فى مدينة لاجوس فرقة مسرحية باسم « أقنعة ١٩٦٠ » ، قدمت الفرقة مسرحية « رقصة الغابات » التى فازت بجائزة مسابقة « الأوبزرفر » وقدمت أيضًا مسرحية « الجمهورى » .

خلال عمله بمعهد روكفلر للأبحاث بجامعة ايبدان ، نشرت مجموعة من قصائده فى لندن . ونشرت بعض أعماله فى مجلة « أورفيوس الأسود » التى عمل – فيما بعد – محررا بها . وقدمت له جماعة مسرح ١٩٦٠ مسرحية « الجمهورى الجديد » . وهى غير مسرحية « الجمهورى » .

فى أكتوبر ١٩٦٢ انضم سوينكا إلى هيئة التدريس بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة « ايف » فى ايبدان .

وفى أكتوبر ١٩٦٣ عين رئيسًا للقسم الإنجليزى فى جامعة « لاجوس » ، وفى نفس الوقت نشر له فى لندن كتاب يضم مسرحيتى « الأسد والجوهرة » و « رقصة الغابات » .

وفى عام ١٩٦٤ استقال من الجامعة ليكون جماعة للمسرح تحت اسم « شركة أوريزان المسرحية » . وخلال هذه الفترة أعد فيلما مدته ٢٥ دقيقة صوره التلفزيون الأمريكى عن مسرحيته « السلالة القوية » .

فى نفس العام قدم مسرح « جرينتش ميوز » نفس المسرحية ، كذا مسرحية أخرى بعنوان « محنة الأخ جيرو » وفى نفس العام أيضًا نشرت له خمس من مسرحياته فى كتاب .

وفى عام ١٩٦٥ مثلت مسرحيته « قبل الإظلام » تتضمن عرضًا غنائيًّا ، هجائيًّا ساخرًا !! وبعدها ببضعة شهور قدمت له مسرحية « الطريق » على المسرح الملكى بلندن .

وفى أكتوبر من نفس العام ، اعتقل سوينكا .

السبب ..

اتهامه بإخفاء شريطى تسجيل من مكتب إذاعة نيجيريا فى ايبدان . كان مسجلا على الشريطين ، خطاب لرئيس الوزراء المحلى « الرئيس أكينتولا » . أحد الشريطين استبدل بشريط مسجل عليه خطاب يطالب الرئيس أكينتولا بتقديم استقالته فورًا ! !

شهادة الشهود أكدت أن سوينكا لم يكن هو الفاعل . ولكن المحاكمة تأجلت إلى ٢٠ ديسمبر . وفى ذلك التاريخ أصدر القاضى حكمه ببراءة سوينكا وأفرج عنه ليجد مسرحيته « الطريق » قد طبعت فى كتاب صدر عن لندن ، وليجد أيضًا روايته « المفسرون » مطبوعة فى كتاب ، وليجد أن مسرحيته « حصاد كونجى » قد مثلت فى قاعة فندق « فيديرال بالاس » فى لاجوس ، وأن مسرحيته القصيرة « أخشاب وأوراق » قدمتها إذاعة لندن .

فى مطلع العام التالى ١٩٦٦ تعين سوينكا كبيرًا للمحاضرين فى جامعة لاجوس ، ورئيسًا لقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب .

فى نفس العام حصل سوينكا على جائزة « جون هوايتنج للدراما » مشاركة بالنصف مع كاتب آخر ، وفى نفس العام أيضًا مثلت مسرحيته « محنة الأخ جيرو » على مسرح « هامستيد » بلندن . ومثلت مسرحيته « حصاد كونجى » فى داكار فى أثناء انعقاد مهرجان الفنون الأفريقية ، ومثلت مسرحية « الأسد والجوهرة » على المسرح الملكى بلندن .

فى عام ١٩٦٧ صدر له ديوان شعر باسم « إيدانر .. وقصائد أخرى » . وتعين سوينكا مديرًا لمعهد الدراما بجامعة ايبدان . ولكن قبل أن يتسلم منصبه فى شهر أغسطس ، اعتقلته سلطات الحكومة الفيدرالية بتهمة نشاطه فى مساندة حركة

انفصال بيافرا فى أثناء الحرب الأهلية .

فى ٢٢ ديسمبر من نفس العام نقل سوينكا من سجنه بمدينة لاجوس ، إلى سجن « كارون » . وفى ١٨ ديسمبر من العام التالى ١٩٦٨ - وهو فى السجن - فاز بجائزة « جوك كامبل » للآداب فى الكومنولث ، التى تنظمها جريدة « نيوستيتسمان » عن روايته « المفسرون » وعن ديوانه « أيدانر .. وقصائد أخرى » .

وخلال وجوده بالسجن أيضًا ، صدر كتاب لروايته « غابة الألف شيطان » التى ترجمها للإنجليزية عن لغة « اليوربا » . وصدر كتاب آخر يضم ثلاثا من مسرحياته القصيرة . وصدر له كتيب صغير من بضع صفحات بعنوان « قصائد من السجن » ، يضم قصيدتين كتبهما فى المعتقل وأمكن تهريبهما إلى الناشر.

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٦٩ صدر الأمر بالإفراج عن سوينكا بمناسبة عيد استقلال نيجيريا . وتسلم عمله كمدير لمعهد الدراما بجامعة أيبدان . وبعدها ببضعة شهور ، قدم له مسرح « أيوجين أونيل » فى « وانفورد » مسرحيته « المجانين والخبراء » التى حققت نجاحًا كبيرًا لدى المتفرجين الأمريكيين . وصدر ديوانه الثانى « غدو ورواح فى المقبرة » .

وفى أبريل ١٩٧٢ قدم استقالته . وترك العمل بالجامعة .

* * *

إذا استعرضنا الإنتاج الغزير لـ« وول سوينكا » لوجدنا أنه يضم إحدى عشرة « مسرحية » وديوانى شعر ورواية واحدة هى « المفسرون » التى نال عليها جائزة .

« المفسرون » وصفها الناقد الأفريقى « لويس نكوزى » بعبارة تقول :

« قدم لنا سوينكا فى روايته الأولى المفسرون ، أقرب صورة للرواية الكبيرة التى أتيح لنا أن نشهدها فى أفريقيا . فالمشاهد العريضة التى نراها فى هذا الكتاب ، بما تزخر به من شخصيات متعددة ، وبحيويتها الدافقة ، وتقدمها الواثق ، لا نجد لها

نظيرًا فى إنتاج أى كاتب روائى أفريقى آخر يكتب بالإنجليزية باستثناء شنوا أتشيبى » .

ثم يضيف الناقد – المعروف بقسوته الشديدة فى النقد – قائلا :

« رواية كتبها رجل على استعداد لمد طموحه ومواهبه وأسلوبه اللغوى – وهى أدواته التى يعمل بها – إلى أبعد نطاق يمكنه من الوفاء بغرضه » .

المفسرون هم جماعة صغيرة من شباب نيجيريا المثقفين المشتغلين بالترجمة . كل منهم يفسر أعمال الآخر . وكلهم يحاول أن يفسر المجتمع الذى يعيشون فيه . لقد نشئوا كأصدقاء خلصاء تجمعهم أوقات اللهو والشراب . وحتى بعد تخرجهم من الجامعة وتفرقهم هنا وهناك ، فإنهم يلتقون بين الحين والحين كمثقفين من طراز واحد ، فيشربون ويمرحون معًا ، ويتأملون الحياة فى نيجيريا القديمة والحديثة على السواء .

رؤية سوينكا فى الرواية ، تكوين معقد للقيم التقليدية الموروثة ، والاتجاهات المعاصرة للحياة اجتماعيًّا وسياسيًّا . وللصراع بين أديان ومعتقدات « اليوروبا » وبين طبيعة مجتمع الغرب . العمل ممتد على رقعة واسعة . والرواية صيغت فى شكل عدد من المشاهد التى يغذيها الحوار . وهذا تطبيق للأساليب الدرامية التى يتقنها سوينكا . ولكنه تدعيمًا للشكل الفنى ، يستعين ببعض فقرات الوصف بالأسلوب المبنى على فكرة تيار الوعى ، ليجعل شخصياته تفسر نيجيريا الحديثة ، وتفسر تراث اليوروبا أيضًا .

ويمكن أن نقول إن « المفسرون » هجائية ذات أشواك حادة ، موجهة ضد سقم مجتمع المدينة النيجيرية أو المدينة الأفريقية . ويحتفظ سوينكا – كعادته – بسخريته اللاذعة للنيل من مظاهر التصنع فى السلوك التى تتكلفها طبقة البرجوازية الجديدة فى نيجيريا .

الرواية تتميز بقوة ودقة فريدة . كما تتميز أيضا بحيوية وسلاسة لغوية منقطعة النظير، تعكس ذكاء سوينكا المتوقد ، وتعكس تمكنه الشديد من اللغة الإنجليزية . وهو يقدم لنا أنماطًا مألوفة . إنهم أنماط ، ولكنهم أفراد متميزون أيضًا . الأرستقراطى . الصحفى ، رجل القانون . المهندس . الفنان . ويقدم لنا أيضًا الملاهى الليلية ، وحفلات الكوكتيل أو .. الزنوج والشهوانية ! ويقدم لنا أيضًا الفساد السياسى . كل ذلك يحظى بعناية وفحص معملى دقيق .

ووسط كل هذا الحشد ، لا يكف سوينكا عن التفكير فى « أوجن » إله القتال والخلق فى تراث اليوروبا .

إن هذا الإله حير سوينكا ، ماذا يكمن وراء طبيعة أوجن من مغزى ؟ إنه إله يجمع بين شهوة التدمير من ناحية ، وبين الدافع إلى الخلق من ناحية أخرى . فبينما يتخذ سوينكا من هذا الإله رمزًا للإلهام المبدع بالنسبة للفنان المعاصر. نجد أن مسعاه يتضح أيضًا فى إقامة صلة بين الطبيعة المزدوجة للإله أوجن وطبيعة الفنان فكلاهما هادم وخالق فى ذات الوقت .

وإذا كان سوينكا لم يكف عن التفكير فى الإله أوجون وهو يكتب « المفسرون » ، فإنه لم يكف عن التفكير فيه وهو يكتب أشعار ديوانه « أيدانر ، وقصائد أخرى » . فأبرز موضوعات هذا الكتاب ، عنف أوجن إله اليوروبا الذى يرمز للحديد والنار والحرب .

* * *

إن سوينكا لا يشغله فى روايته وقصائده الإله « أوجن » فقط . ولكننا نلمح فى خلفية مسرحياته اعتقاد قبائل اليوروبا فى الأسلاف والأجداد . وهو يعالج بطريقة مثيرة ، أفكارًا متواترة . مثل إرجاع الآلهة القديمة إلى مكانتها ، والصراع بين قيم المجتمع القديم والجديد . وعلاقة الرغبة فى الموت والتضحية .

ففى مسرحية « السلالة القوية » يعرض التشابه والفروق ، بين التضحيات المسيحية والأفريقية .

وفى مسرحية « رقصة الغابات » - مثلت لأول مرة بمناسبة احتفالات استقلال نيجيريا - تدور الأحداث بين الآلهة ، والأرواح ، والناس المشتغلين بالسياسة . وتدور حول التاريخ ، والفن ، والواقعية ، والعقائد..

فى هذه المسرحية ، نرى خلفية « ديموكى » النقاش ، وهى ترسم صورة دقيقة - ذات دلالة - لعملية النقش ، ودور نقاش الخشب فى عقيدة قبائل اليوروبا .

ونجد أن مسرحيته « الأسد والجوهرة » تعالج مشكلة الاختيار بين المدينة ، وبين القرية بجمالها التقليدى . والذى يواجه مشكلة الاختيار ، أحد المدرسين يرمز به سوينكا للمدنية والتقدم . المدرس حائر بين أفكاره ، وبين الجيل القديم المتحكم فى المجتمع الذى يرمز به سوينكا للتقاليد . وينتهى الأمر إلى التأكيد على أنه من الأفضل أن يستمر التقدم مع الاحتفاظ بالأصالة والقيم .

وبالرغم من أن سوينكا يستخدم اليوروبا ، بأقنعتها ، وآلهتها ، وطبولها ، وشعائرها ، فى مسرحياته ، فإنه يقاوم مبدأ « الزنوجة » الذى روج له ترويجًا شديدًا كل من : « أيميه سيزير » شاعر جزر الهند الغربية ، و « ليوبولد سنجور » شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها(عام-١٩٧٣) . فى رأى سوينكا أن الوعى الزنجى ، والتراث الزنجى ، والقيم المشتركة فى العالم الزنجى ، كلها بلا جدال أمور هامة . ولكنها ليست سوى جزء من الوعى الإنسانى ، والقيم المشتركة للإنسانية المستنيرة .

إن سوينكا لا يريد من الزنوجة التى جاءت كرد من ردود الفعل على مظاهر تعالى البيض وغطرستهم ، أن تتحول لتعكس صورة مريضة لأفريقيا . أو أن تتجه

لمجرد إثارة عاطفة حول احترام الذات أو البعث الأفريقى . لأن الزنوجة – فى رأيه – لا تستطيع أن تصبح شيئًا مطلقًا أكبر من الفن أو الحياة . ولا تستطيع أن تكون أكبر من الإنسانية ذاتها .

وسوينكا محق فى رأيه .

ونستطيع أن نلمس مدى الحق فى رأيه ، إذا تأملنا كيف استطاع هو كفنان ، وليس كزنجى ، أن يفرض نفسه على العالم .

ففى جامعة «كانساس» الأمريكية ، كان موضوع إحدى الرسائل للحصول على درجة الماجستير «وول سوينكا المسرحى النيجيرى» .

وعن سوينكا وأدبه وشعره وفنه المسرحى صدر أكثر من كتاب :

* «كتابات وول سوينكا» صدر فى لندن ١٩٧١
* «وول سوينكا» صدر فى لندن ١٩٧١
* المسرح والقومية .. وول سوينكا والملك جونس» صدر فى باريس ١٩٧٢ .

وإذا كان سوينكا يقاوم عقيدة الزنوجة . فإنه شديد الاعتزاز بأنه أفريقى . وحريص على أفريقيته وشديد الاعتزاز ببلده . وحريص فى كل ما يكتب أن يوجه كتاباته لوطنه نيجيريا ، ولوطنه الأكبر أفريقيا .

وفى نداء موجه للكاتب فى أفريقيا ، يقول سوينكا :

«إن الكاتب الافريقى مطالب بتركيز اهتمامه على العلل التى تظهر أعراضها بوضوح فى بلده الأفريقى ، وبين شعبه وقومه . لقد كانت وظيفة الفنان فى المجتمع الأفريقى – دائمًا – متمثلة فى كونه سجل خبرات مجتمعه ، ومعاييره ، وعاداته ، وقوانينه الأخلاقية ، وفى كونه أيضًا الصوت الذى تنطلق به الرؤية فى عصره . ولقد آن الأوان لكى يستجيب ذلك الفنان لجوهر ذاته هذا» .

ثم يضيف :

« أقسم لكم ، أنه إذ أمعن كل منكم النظر فى نفسه ، فوضع يده تمامًا على ما يحس به ، وأفصح عنه بصدق ، أى اتخذ موقف الولاء تجاه ذاته ، أقسم لكم أن ذلك سيكون أفضل سبيل له كى يقف موقف الولاء من شعبه . متى وعى ذاته . ووقف على حقيقة ما يحس ، ترجم بصدق ، عما يحسه شعبه وقومه » .

* * *

حياة حافلة .. برغم سنواتها المعدودة ..

وإنتاج غزير .. متنوع .. ولكن يتميز بشىء ..

إن سوينكا .. يصور فى معظم أعماله ، ماذا يمكن أن يتعرض له الإنسان الذى يعادى السلطة ، عندما يختلف معها فى الرأى . وهو نفسه يقول :

« إن الإنسان معرض لأن يكون ضحية لمجتمعه من أجل مبادئ يؤمن بها ، بل إنه معرض لدخول السجن فى سبيل مبادئه » .

وقد دخل سوينكا السجن .. مرتين ..

المرة الأولى لبضعة شهور ، والثانية لبضع سنوات ، كتب خلالها قصيدتين ، « أشعار من السجن » و « زهور لبلدى » .

كان هو سجينًا فى مساحة محدودة يصفها ساخرًا قائلا : إنه شىء أشبه بكفن وضعت فيه حيًّا ، مساحته ١٦ شبرًا عرضًا و ٢٣ شبرًا طولا . عشت تحت رقابة حراس يبدو أنهم من أصحاب مذهب السادية !!

فى هذا « الكفن » محدود المساحة ، يفكر سوينكا ، بعقل يتجاوز حدود السجن ، ويتجاوز حدود بلده التى تحيا فى حرب أهلية مدمرة .. لينادى « أيتام العالم » لينقذوا الإنسان من غبائه . إنه فى ظل مرارة السجن ، لا يهمه إلا الصدق والحقيقة . لا يهمه إلا نضال الإنسان ليبقى أبدًا مخلصًا للصدق وللحقيقة . ولا يهمه

إلا تضحيات الإنسان لنبض الحقيقة ، وليبقى الصدق مشعلا يضىء الطريق لكل الأجيال القادمة .

إنه يترجم كل هذه المشاعر فى قصيدته « زهور لبلدى » . التى يبدؤها بدعوة ضد العنف وضد الحرب ، إنه يبدو كما لو كان يحيا فى بلد بعيد عن نيجيريا . ويسأله أهل ذلك البلد الغريب : أين ذهبت زهوركم ؟ ويحس أن أسئلة الغرباء ، يتردد صداها فى وطنه نيجيريا ، حيث ينبت الموت مكان الزهور التى اختفت . يقول :

ابحث عن ..
أصوات مطر تحت ضوء الشمس
وطائرات زرقاء من الورق
وراءها سحابة عاجية ..
وأبراج .. ورائحة أيدى ..
تتحسس برفق ، الزهور الجبلية ..

صورة للحياة .. للجمال ، ولكن سرعان ما تتحول الصورة إلى النقيض .. فيقول :

رأيت .. أربع طائرات من صلب ..
هل تظن .. أن أذرعتها المفتوحة ..
مفتوحة .. تنثر الزهور الجبلية ؟!

سوينكا .. يرى طائرات الورق التى كان يلعب بها الأطفال الصغار .. قد تحولت إلى طائرات من صلب ..

طائرات عنيفة قاسية .. تجتاح السماء ومعها غيوم قاتمة . وتحولت الزهور الجبلية الجميلة .. إلى قنابل تقتل وتدمر .

الشيء الذى يجب ملاحظته . أن سوينكا فى كتاباته حتى وقت دخول السجن عام ١٩٦٧ كان خفيف الظل ، ساخرًا ، تنطوى كلماته على هجاء ساخر مرير من أجل غد أفضل لقومه وبلده حتى كان يطلق عليه – أحيانًا – اسم « مارك توين » الأفريقى . تشبيهًا له بكاتب أمريكا الساخر المعروف . ولكنه بعد سجنه فقد قدرته الساخرة ، وفقد خفة ظله التى لازمته عشرة أعوام من عمره الفنى .

مثلا .. فى أيام سخريته .. فى قصته القصيرة « محادثة تليفونية » تسأل صاحبة البيت الإنجليزى طالب سكن أفريقى :

– ما مدى سوادك ؟ هل أنت أسمر .؟ أم أسود ؟

– أنا .. من غرب أفريقيا . من حيث الوجه ، فأنا أسمر .! ولكن ياسيدتى .. يجب أن ترى بقيتى .! ألا يحسن بك ياسيدتى .. أن تعاينى بنفسك ؟!

شيء آخر .. يميز سوينكا .

إنه لا يعتبر نفسه كاتبًا ملتزمًا بأى أيديولوجية محددة . إذا كان هناك ما يلتزم به حقًا .. فهو الإنسان . لهذا فإن أعماله تمجد الحياة . وتمجد الإنسان .

تجربة السجن .. تركت بصماتها عليه بوضوح .. لقد فقدت قصائده الرشاقة ، والمرح ، وروح الفكاهة الرقيقة فى عذوبة .. وتحول إلى نبرة حزينة قاتمة .. بالرغم من المنصب الذى عين فيه عقب الإفراج عنه ، وبالرغم من قرار الحكومة تخصيص ربع مليون جنيه إسترلينى لتحويل مسرحيته « حصاد كونجى » إلى فيلم سينمائى طويل .

* * *

هذا هو « وول سوينكا » الذى تخطى بإبداعه الفنى آفاق نيجيريا ، وتجاوز حدود أفريقيا ، إلى آفاق عالمية واسعة عريضة ، ليصفه نقاد بريطانيا ، بأنه من أفضل من يكتبون بالإنجليزية اليوم فى أى مكان من العالم .

موقف من الحياة..

أصابع قادرة على صياغة التماثيل
على نحت قامات الأجساد من الرخام
على ترجمة الأفكار..
أصابع تؤثر فينا ..
وتهزنا ..
أصابع الفنانين .

« من قصيدة الأصابع »

لا شك أن الأدب والفن .. موقف .
موقف من الحياة .. أو مع الحياة .
والأديب والفنان « عثمان سميني » الذى نتعرف عليه فى هذه السطور ، متعدد



● عمان سمیعی ●

المواهب والملكات ، ولكن يكرسها كلها من أجل أفريقيا ، ومن أجل الإنسان الأفريق وحريته وكرامته ، ومن أجل الإنسان فى كل مكان .

سمبينى شاعر مرهف ، وروائى لامع . ومخرج سينمائى يتردد اسمه فى أنحاء العالم وتفوز أفلامه بجوائز المهرجانات العالمية .

وهو فى قصائده ، أو فى رواياته ، أو أفلامه ، يبقى دائمًا بالقرب من الناس ، وبالقرب من الواقع أيضًا . ولكنه يخص الطبقة العاملة باهتمام خاص . بل إنه يعتبر نفسه مسجلا لحياة العمال ونضالهم ، سواء بالكلمة فى القصيدة ، أو بالجملة فى الرواية ، أو بالصورة فى أعماله السينمائية .

هذا هو موقفه مع الحياة ..

وهذا الموقف من سمبينى طبيعى جدًّا ..

* * *

ولد سمبينى يوم ٨ يناير ١٩٢٣ فى « زيجينكور » بإقليم « كازمانس » بجمهورية السنغال الأفريقية . لم تتح له الفرصة لدخول مدرسة ثانوية . أو مدرسة عالية أو جامعة من الجامعات . فاضطر لأن يعلم نفسه بنفسه . إن كل ما أتيح له من فرص ، بضع سنوات فى مدرسة ابتدائية . وبعدها اشتغل بصيد السمك (مهنة أبيه) . عندما بلغ الثانية عشرة من العمر . دربوه وعلموه لكى يصبح عامل بناء . ولكن الفكرة لم تعجبه على الإطلاق . وفضل أن يصبح « ميكانيكى » !

نشبت الحرب العالمية الثانية . وجندوه فى صفوف الجيش الفرنسى كجندى من الدرجة الثانية بالطبع . واشترك فى القتال الذى دار ضد النازى والقوات الإيطالية فى إيطاليا وألمانيا . ثم سرح من الخدمة العسكرية فى « بادن بادن » بألمانيا وعاد إلى السنغال عام ١٩٤٧ ليجد هناك اضطرابًا عامًّا قام به عمال السكة الحديد .

بعد هذه التجربة فى دنيا العسكرية فى أوروبا ، أحس سمبينى بحاجته إلى مزيد

من المعرفة فى عالم الأدب . وأحس بطموح شديد لأن يصبح أديبًا . ودفعه الإحساس والطموح للسفر إلى فرنسا ، حيث قضى عشرة أعوام من عمره ، اشتغل خلالها عاملا فى ميناء مرسيليا ليواجه مطالب الحياة والتعليم . وخلال تلك الفترة ، بدأ سمبينى يمارس تجربة الكتابة .

وفى عام ١٩٥٧ عاد إلى « داكار » عاصمة السنغال ليستقر بها فترة ، مالبث بعدها ، أن بدأ سلسلة طويلة من الرحلات والسفريات فى أفريقيا ، يرى كل شيء بعينى كاتب يبحث عن الأعماق :

عندما بدأ سمبينى الكتابة ، وجد فى القصيدة أداته للتعبير . وما لبث أن هجرها . ووجد ضالته الرواية الطويلة المكتوبة . واستطاعت تجربته فى الخدمة العسكرية والحرب ، وتجربة العمل فى ميناء مرسيليا أن تضفى على أعماله حيوية وخبرة وصدقًا . وهو فى أعماله يهتم بالطبقة العاملة الأفريقية بوجه خاص . ويعتبر نفسه مسجلا لحياتها ونضالها .

وإذا استعرضنا عناوين رواياته ، فإننا نلمح على الفور اهتماماته .. مثلا .. « عامل الميناء الزنجى » « يابلدى .. ياشعبى العظيم » ، و « فولتايك » و « قطع الخشب يملكها الله » .. إلخ .

الرواية الأخيرة صدرت عام ١٩٦٠ وتدور حول الإضراب التاريخى لعمال السكة الحديدية الذى وقع عامى ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ، ويرسم فيها سمبينى صورة نابضة بالحياة للأحوال التى سادت السنغال عقب هذا الإضراب .. يقول فى روايته :

« مضت الأيام والليالى . لم تكن هناك أخبار سوى تلك التى كانت تجلبها كل ساعة إلى كل بيت . وكان الحال لا يتغير . انتهى المخزون . ونضبت المدخرات . ولم يعد فى البيت نقود ، الناس يخرجون سعيًا وراء من يقرضهم شيئًا . الإجابة التى

يسمعونها من التجار لا تتغير : إنك أصبحت مدينًا لى بالكثير ! كيف تسدد ؟ » .

ويتساءل سمبينى على لسان شخصية من شخصيات روايته :

« وماذا عنى ؟ لن أستطيع – قطعًا – أن أسدد ما اقترضت . بل لن أستطيع أن أسدد الفاتورة القادمة ! لماذا .. لماذا لا نستأنف العمل ؟! »

إنه يكشف النفس البشرية .. برؤية وإدراك لم يتوصل إليها الكثيرون فى الكتابات الاجتماعية الأفريقية .

ومع ذلك .. فهو فى مقدمة أروع أعماله الأدبية « لارماتان » يقول بكل تواضع :

أنا لا أكتب نظرية عن الرواية الأفريقية .. ولكن فكرة عملى هى البقاء بالقرب من الشعب والواقع بقدر ما يمكن »

وهذه الرواية « لارماتان » تتألف من جزءين . الجزء الأول من تسعة عشر فصلا بعنوان « استفتاء » . وكان سمبينى فى ذلك الوقت يكتب روايته « دومبى » التى تروى حياة عائلة سنغالية خلال مائة عام . ولكن « دومبى » تأثرت بالأمر الواقع ، فقد غلب الحاضر الماضى .

يقول سمبينى حول هذا :

« منذ نشأت فكرة لارماتان .. فرضت الشخصيات على نفسى طباعها ، على عكس ما فعلت مؤلفاتى الأخرى . بل إن الشخصيات تمردت على سيطرتى ، وطالبت بفضاء واسع يتفق وتوحيد بعض الدول الأفريقية » .

ويرى سمبينى .. أنه جاب طرقات أفريقيا على امتداد شهور ستة .. حتى يفهم ويرى ما ينبغى أن يتحدث عنه .

لهذا كان طبيعيًّا أن تفوز الرواية بالجائزة الأولى فى مهرجان أفريقيا السوداء الذى أقيم فى « داكار » عام ١٩٦٩ ، إن أحداث الرواية لا تدور فى دولة من الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية كما يظن الكثيرون . وهو يبرر ذلك بكلمات تقول :

« أنا آخذ من كل دولة واقعة أو حدثًا من أحداث المدينة . وفكرتى هى أن يكشف عنها كل واحد . ويرى فيها قدرًا من نفسه ، حسب الحياة التى يحياها » .

إن الأحداث تدور ، لا فى بلد معين ، بل فى مكان لا يمكن تحديده جغرافيًّا . مدينة ترمز إلى أفريقيا فى مجموعها . فى هذا البلد تتألف جبهة تطالب بالاستقلال ، فى نهاية الرواية تتحرر « غينيا » لأنها تقول « لا » للاستعمار ، ولكنها بإرادتها تفتح الطريق أمام أفريقيا الجديدة .

عثمان سمبينى على لسان إحدى الشخصيات فى روايته ، يقول :

« إن مواطنينا الذاهبين إلى غينيا سيعرفون كيف يتحدثون عن كفاحنا . إن غينيا ، وساحل العاج ، والسنغال وأولنجى والكونغو أجزاء من وطننا . لقد تسبب قانون أثيم ، شرعه آثمون ، فى التفرقة بيننا . لكنها تفرقة سطحية جدًّا .. »

إنها رواية سياسية ثورية تصور أفريقيا فى مفترق الطرق . عليها أن تختار فى الاستفتاء ، ومستقبلها يتوقف على هذا الاختيار . ومن خلال سطور الرواية تبدو موهبة سمبينى السينمائية . فهو بارع فى تحريك عدد من الشخصيات على طريقة « زولا » . والمشاهد تتسلسل أمام القارئ على اختلاف أهميتها . تحتل فيها هذه الشخصية أو تلك ، ويحتل فيها هذا الموقف أو ذاك مكان الصدارة على التوالى . كما أن الزمان فيها قادر على الرجوع إلى الوراء تمامًا مثل « الفلاش باك » فى السينما . وهى تبتعد عن التكنيك التقليدى للرواية . فهى ليست سردًا أو وصفا أو تحليلا . بل هى سلسلة من اللوحات تتصاعد تدريجيًّا نحو الخاتمة الأليمة . نحو انتصار « نعم »

فى الاستفتاء ، أى انتصار الاستعمار فى تمزيق وحدة أفريقيا !

إن الموهبة السينمائية لدى سمبينى .. لا تطغى على موهبة الشاعر الأديب .. فالرواية تسبح فى تلك الشاعرية الأفريقية التى تتغنى بالزنجى والزنوجة والتى نلمحها فى أعمال « سنجور » و « سيزير » وغيرهما . إنها شاعرية نابعة من الصورة والإيقاع . نابعة من لغة العشيرة والأهل : « سلام فحسب ! سلام على العالم أجمع ! فليحل السلام فى هذا البيت . وكل البيوت الأخرى » .

الجزء الأول من « لارماتان » بعنوان « استفتاء » نشأت فكرتها من القضية التى طرحت للاستفتاء فى ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ . والاستفتاء – كما يبدو ظاهريًّا – أن تختار أفريقيا ، بين أن تولى ظهرها للماضى وتتطلع للمستقبل . أو ترتبط بالماضى وترفض المستقبل . ولكن الاستفتاء يبدو فى عين سمبينى ، اختيار بين الاستعمار والاستقلال . فى الرواية يتلامس عالمان : عالم السود . وعالم البيض . ويواجه جيلان بعضهما بعضًا : جيل الآباء أنصار التقاليد . وجيل الأبناء الثوريين .

أفريقيا فى هذا الاستفتاء – تقف عند مفترق الطرق ، وعليها أن تختار ، ومستقبلها يتوقف على هذا الاختيار ، وكلمة الاستقلال تعنى : الحرية والكرامة الإنسانية . واختيار هذا الطريق معناه مواجهة أعباء ثقيلة بعد اتخاذ تلك الخطوة . ولكن الأعباء الثقيلة لا تعنى اختيار الطريق الأسهل الخالى من الأعباء . إن الطريق الأسهل هو الطريق الآخر . طريق الاستعمار ، أى طريق الاستعباد .

ولكن ..

الأغلبية – فى الاستفتاء – تختار الطريق السهل ، طريق بلا متاعب ولا أعباء ! !

ولكن الاختيار ، لا ينبع من الإرادة الحرة للجماهير . فقد استخدم البيض كل الوسائل والأساليب ليشتروا من الزنوج من هو قابل للفساد . لقد عبثوا من يديرون

البلد – وأغلبهم عملاء للبيض – من رجال الشرطة والدين ، ومنحوهم وعودًا معسولة .

مثلا ..

الشعب .. سيعفى من الضرائب !

المحصول .. سيباع بثمن أعلى !

ليس هذا فقط ..

بل لقد أجزلوا لهم العطاء ، بالنبيذ ، والويسكى . وجوالات الأرز !

بهذا الأسلوب .. نجح المستعمرون فى توجيه الجماهير فى الاستفتاء لاختيار الطريق السهل . ولكن الجماهير لا يمكن أن تتنكر لمبادئها وأصالتها . إن المخلصين الأوفياء ، أناس بسطاء متواضعون : للفقراء من المثقفين . العمال . أفراد من الشعب . ولكنهم جميعًا فى جبهة واحدة . إنهم – أولا وقبل أى شىء – ثوار يدافعون عن الاستقلال ، وعن وحدة أفريقيا الحرة . صحيح أنهم هزموا فى الاستفتاء ، ولكن نصرهم ليس ببعيد .

إن سمبينى – بموهبته الشاعرية والروائية – يؤكد إيمانه العميق بكرامة الإنسان . وبأيام قادمة مشرقة .

وقد نتساءل عن « لارماتان » أصل الرواية .

« لارماتان » اسم لوحة رسمها الفنان « لى » ، لوحة تمثل تاريخ أفريقيا كله . يجلس تاجر عظام آدمية وخلفه كوم منها . ومن حوله السوق . رجال ونساء وأطفال . فى اللوحة أيضًا « نوم » وهى النموذج المفضل لدى الفنان راسم اللوحة . نرى نوم وقد التفت بقماش أبيض وتحمل طفلا يرفع يده .

سمبينى يسأل صديقه « لى » شرحًا للوحة فيقول له :

« اللوحة تمثل الماضى والمستقبل . الرجل الذى تراه ومن حوله العظام ، يعرض

حقيقة . يعرض الموت البطىء المؤكد . يعرض ثمرة حتمية للنظام الذى يحكمنا ، من حول التاجر نرى الشعب . شعب حكم عليه بالفناء » .

ثم يضيف الفنان السنغالى « لى » قائلا :

« أمانوم ، فهى تجسيد للأرض الأفريقية ، الأرض الحارة الخصبة التى تجزل العطاء بلا انتظار ، والطفل يرفع يده مشيرًا إلى التاجر ويسأل : ماذا عن غدى ؟ إنه يرفع عينيه إلى والديه . وجه الأب ينم عن الخوف . أما وجه الأم فلا ينم عن شىء . لا عن غضب . ولا عن رغبة فى الثأر » .

ويصمت « لى » قليلا .. ثم يقول لسمبينى :

«إن اللوحة فى مجموعها ، تعنى أن أفريقيا مقبرة للأفريقيين. وفوق رءوس كل هؤلاء ، لارماتان . كأنها سحابة بنفسجية . لارماتان ليست ريح حارة جافة كما نعرفها . إنها هنا فى اللوحة ، النحيب ! نحيب أربعة قرون صادر عن ملايين الأصوات ، أصوات الأفريقيين المدفونة . إنها صرخة مصممة على الوصول إلى آذان جيلنا . صرخة قادمة من ليال قديمة غابرة ، من أجل أيام قادمة مشرقة »

إن الأدب والفن – فى رأى سمبينى – موقف . موقف من الحياة . أو مع الحياة . والأدب والفن يلتقيان على نفس الطريق ، فى اتجاه نفس الهدف . وتأكيدًا لذلك ، أعطى لروايته اسم « لارماتان » نفس اسم لوحة صديقه الفنان « لى » ، الذى عبر فى لوحته بالألوان والفرشاة ، عن نفس المعانى التى عبر عنها سمبينى فى روايته بالكلمة المكتوبة .

وقبل أن نترك عالم الكلمة عند سمبينى ، لننتقل إلى عالمه الجديد ، عالم الكلمة المصورة ، لابد أن نتوقف لحظة لكى نشير إلى « عامل الميناء الزنجى » أول أعماله الروائية . وهى تدور حول سيدة بيضاء تسرق نص رواية كتبها عامل أسود فى الميناء . السيدة البيضاء تنسب النص لنفسها . وتحاول طبعه ونشره حاملا اسمها .

ولكن زيفها ينكشف وتفشل محاولتها . وقد نشأت فكرة الرواية من تجربة شخصية لسمبينى فى أثناء وجوده فى مرسيليا .

كما نشير أيضًا إلى رواية « يابلدى .. ياشعبى العظيم » وهى حول رجل أسود تعلم فى أوروبا . وذات يوم يعود إلى وطنه متأبطًا زوجة شقراء . ويقابله قومه باستنكار شديد . ويبذل البطل محاولات كثيرة ليقنع أهله . وليعلمهم المدنية والتقدم . ولكن أفكاره تواجه برفض ومقاومة شديدتين . الغريب . أن الرافضين هم أهله المتزمتون المتشبثون بالتقاليد . وهم أيضًا المستعمرون البيض ! هذه الرواية لم تلق نجاحًا جماهيريًّا فى السنغال . ومع ذلك فقد ترجمت إلى أكثر من لغة أجنبية .

* * *

احترف سمبينى الكتابة والأدب ، وحقق نجاحًا ملحوظًا . وفجأة جاءته فرصة للذهاب إلى الاتحاد السوفيتى للدراسة بمعهد السينما . ولم يتردد لحظة وترك بلده وسافر للدراسة . وبعدها استطاع سمبينى أن يجعل من هذه الفرصة نقطة تحول حاسمة فى حياته . واستطاع أن يحقق فى عالم السينما نجاحًا أكسبه لقب أشهر مخرجى السينما فى أفريقيا السوداء . وأكسبه شهرة عالمية .

انتقل سمبينى إلى السينما كأداة تعبير جديدة . وخرج من عالم الكلمات ليدخل عالم الصور المرئية ، كانت أول أعماله فيلمًا قصيرًا بعنوان « بوردم ساريت » الذى فاز بجائزة العمل الأولى فى مهرجان « تور » بفرنسا عام ١٩٦٣ . وفاز بالجائزة الدولية للسياحة فى باريس فى نفس العام .

ثم أخرج فيلمه القصير « نبيه » الذى حصل على جائزة تقدير هيئة تحكيم « لوسرن » بسويسرا عام ١٩٦٤ وفى نفس العام فاز بالجائزة الدولية للأفلام التسجيلية بفرنسا ثم أخرج فيلم « سوداء من .. » وهو أول فيلم طويل يتم تصويره فى

أفريقيا . وفاز بجائزة « جان فيجو » باريس والجائزة الأولى لمهرجان فنون أفريقيا السوداء بداكار (السنغال) فى عام ١٩٦٦ .

ثم أخرج فيلم « مندابى » . وهو أول فيلم طويل بلغة « الولوف » الأفريقية . وقد فاز بجائزة خاصة فى بينالى البندقية عام ١٩٦٨ . وفى نفس العام فاز الفيلم بالجائزة الأفريقية الآسيوية فى مهرجان طشقند السينمائى . أما آخر أفلامه فهو « ايميتى » . فيلم طويل فاز بجائزتين فى مهرجان موسكو السينمائى عام ١٩٧١ .

فى عام ١٩٧١ أخرج سمبينى فيلم « إله الرعد » الذى تدور أحداثه فى إقليم « كازمانس » – مسقط رأسه – خلال الحرب العالمية الثانية ، فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تستخدم أسلوب العصابات فى السنغال للضغط على المواطنين ، من أجل تجنيد شباب من أصحاب القوة الجسدية فى صفوف القوات الفرنسية المحاربة . وكانت السلطات تشحن الشباب المجند إلى أوربا ليعملوا فى تموين المدافع بالقذائف والقنابل .

موضوع الفيلم ينبع أولا من التجربة الشخصية لسمبينى فى الحرب العالمية الثانية . ومن مجموعة قصص قصيرة كان قد كتبها ونشرها فى وقت سابق .

وسمبينى الذى يرأس الآن اتحاد السينمائيين فى السنغال ، يبدو فى كل أعماله السينمائية ، شاعرًا وكاتبًا . إنه يستخدم الصورة كما يستخدم الكلمة فى التعبير عن أفكاره السياسية النابعة من مفهوم وإحساس ثورى . وفكرة الاستقلال عنده ترتبط بالحرية والكرامة والتقدم . وهو فى الفيلم والرواية والقصيدة يعبر عن إيمان واثق عميق بانتصار الإنسان فى كل مكان يناضل فيه ضد الاستعمار من أجل غد أفضل .

قابلت سمبينى فى المؤتمر الخامس للكتاب الأفريقيين الآسيويين ، الذى انعقد فى سبتمبر ١٩٧٣ فى مدينة « الما آتا » عاصمة جمهورية « قازاقستان » السوفيتية . كان

مدعوًا لحضور المؤتمر ، ولاستلام جائزة لوتس للأدب الأفريقى الأسيوى التى فاز بها عن عام ١٩٧١ .

فى لقائنا قال : « عندما كنت صبيًّا ، لم يكن يدور بخلدى أن فقر أسرتى سيقف حائلا أمام تعليمى ودخولى الجامعة . ولكن الأيام أثبتت لى خطأ ما اعتقدت . ووجدت فى الكتابة والأدب وسيلة تحقق لى واحدة من أمنياتى وهى الاتصال بالجماهير الأفريقية التى نشأت بينها . وأعرف ما تعانيه . أعرفه تمامًا . كما أعرف ما يتطلع إليه الناس الأفريقيون فى الغد والمستقبل » .

عندما تحدثنا عن السينما فى أفريقيا .. قال :

« هناك أسس للسينما فى أفريقيا . ولكن لا يوجد هناك حتى الآن ما يمكن أن نطلق عليه اسم السينما الأفريقية . معظم دور العرض فى أفريقيا ملك لغير الأفريقيين . وهناك مخرجون فى أفريقيا ولكنهم لا يعملون . وإذا وجدوا ما يعملونه ، فإنهم لا يجدون من يوزع أفلامهم . وهذا يتطلب إقامة مؤتمرات ومهرجانات للسينما فى أفريقيا ، لدراسة المشاكل والتعاون لإيجاد حلول لها . وأعتقد أن بلدكم مصر ، قادرة على عمل الكثير فى هذا المجال » .

* * *

سمبينى الذى بدأ حياته الأدبية شاعرًا ، يؤكد مرة أخرى التقاء الفن والأدب على نفس الطريق فى اتجاه نفس الهدف . نلمح ذلك فى قصيدته « أصابع » .. إن الفنان – قبل أى شىء – مقاتل من أجل الحرية ، ومن أجل الانتصار على قوى الاضطهاد والشر . يقول :

أصابع قادرة على صياغة التماثيل
على نحت قامات الأجساد من الرخام
على ترجمة الأفكار

أصابع تؤثر فينا
وتهزنا
أصابع الفنانين

* * *

أصابع خشنة غليظة جافة
تحفر التربة وتحرثها
وتنفتح للبذار
أصابع الفلاحين

* * *

إصبع مسند إلى الزناد
عين على خط التسديد
رجال على حافة الحياة
حياتهم معلقة على هذا الإصبع
إصبع يقضى على الحياة
إصبع الجندى

* * *

عبر الأنهار واللغات
من أوروبا إلى آسيا
من الصين إلى افريقيا
من الهند وعبر المحيطات
فلنوحد أصابعنا حتى تنزع
عن هذا الإصبع كل قوة

هذا الإصبع الذى يلبس الإنسانية
ملابس الحداد .

* * *

إن الأديب الفنان سمبينى صاحب المواهب المتعددة .. والمبادئ الإنسانية .. هذه المواهب والمبادئ أضفت على أعماله أصالة وقيمة . وجعلت منه فنانًا يعرفه العالم ويقدره .. فيمنحه جائزة لوتس للأدب الأفريقى الآسيوى عن عام ١٩٧١ .



عالم.. من حجر!!

من الذى ألهمنى لأخط آلاف الكلمات فى تلك الكتب التى نشرت واسمى على غلافها ؟ إنها حياة الناس ، حبهم ، كراهيتهم . وآلامهم وسعادتهم ، آمالهم وتطلعاتهم . إن هذا هو ما يقف وراء كل أعمال الفن والثقافة ذات القيمة والأهمية ، فمن غير وجود الناس فى الخلفية ، فإن الأدب والفن يصبح كلامًا لا معنى له ولا قيمة .

عندما حضر للقاهرة فى يناير عام ١٩٧٣ ، أهدانى أحدث كتبه ، الذى كان صدر قبلها ببضعة أسابيع . عنوان الكتاب : « فى ضباب نهاية الموسم » . عنوان غريب ! . استعاره الكاتب من قصيدة « الشهداء » للشاعر الغينى « كونتى سيدون تيديانى » يقول فيها :



● الكس لاجوما ●

« قارب من أحشاء الزنوج السوداء
دروع من ورق البرشمان ..
هش وسريع الهرب عندما يواجه الحجر المحترق
سوف يهشم كخيوط العنكبوت
فى ضباب نهاية الموسم

وهو يهدى الرواية – التى يضمها الكتاب – إلى المناضل الشهيد « بازيل فبروارى » ورفاقه الذين استشهدوا فى المعركة من أجل تحرير « زيمبابوى » عام ١٩٦٧ .

الكتاب الجديد ، واحد من الكتب العديدة والمتنوعة التى نشرت تحمل على غلافها اسم « الكس لاجوما » الكاتب الواعى بالناس إلى حد قوله :

« إن الذى ألهمنى لأخط آلاف الكلمات فى تلك الكتب التى نشرت تحمل اسمى على غلافها ، هم الناس ، حياتهم . حبهم وكراهيتهم . آلامهم وسعادتهم . آمالهم وتطلعاتهم » .

استمعت إليه وهو يقول هذه الكلمات فى نيودلهى خريف عام ١٩٧٠ عقب استلامه جائزة « لوتس » للأدب الأفريقى الآسيوى لعام ١٩٦٩ من يد السيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند ، مشيرًا بذلك إلى أن الذى يستحق الجائزة حقًا هو شعب جنوب أفريقيا الذى ينتمى إليه .. لأنه لولا هذا الشعب لما أصبح هو كاتبًا . وقد اعتبر « الكس لاجوما » هذه الجائزة شرفًا لا يعود عليه وحده ، بل اعتبرها جائزة لكل الكتاب الذين مازالت كتاباتهم غير منشورة وممنوعة فى جنوب أفريقيا . واعتبرها جائزة لشعب جنوب أفريقيا المضطهد .. الشعب الذى ألهمه كتابة كل مؤلفاته .

* * *

ولد « لاجوما » فى فبراير عام ١٩٢٥ بمدينة كيب تاون لأب وأم من العمال يقيمان فى « الحى السادس » حى الملونين الكادحين فى عاصمة الاضطهاد العنصرى . والده « جيمى » كان رئيسًا لـ« مؤتمر المواطنين الملونين » بجنوب أفريقيا .

« الكس » ، أكمل تعليمه العادى فى مدرسة ترافلجار العليا ، وفى الكلية الفنية . كلا المدرستين فى مدينة «كيب تاون » .

بدأ حياته بيقظة مبكرة فى الطفولة على قبح الواقع وقسوته . وتكشفت موهبته الأدبية منذ الصبا . فذاع له صيت بين أقرانه فى الأحياء الفقيرة حتى كانوا يتلقفونه فى الأمسيات على نواصى الحارات ، ينصتون بشغف وإعجاب وانبهار لأقاصيصه التى كان ينسجها لهم من خياله . والتى كانت تدور كلها حول المغامرات والشجاعة والجسارة .

ومع تلك الموهبة ، ظهر لديه اهتمام مبكر بالسياسة ، فبدأ يتردد على الاجتماعات ، ويشترك فى المظاهرات وهو صبى صغير لم يتجاوز العاشرة . وقد وزع وقته بين ذلك الاهتمام السياسى وبين القراءة التى أقبل عليها بشغف ، كان يلتهم مصروفه الهزيل ثمنًا للكتب المستعملة . وفى مرحلة الدراسة الثانوية اندلعت نيران الحرب الأهلية فى أسبانيا وأصبحت الحرب مؤشرًا لكثير من صراعات العالم التالية فشدت اهتمامه أكثر مما كانت تشده تعليقات يوليوس قيصر وفتوحاته ، التى كانت تدرس له فى المدرسة . وعندما اجتاحت النازية أوروبا بعد ذلك بسنوات قليلة ، سارع لاجوما يسعى إلى التطوع لمحاربة الفاشيين ، ولكنه لم يحقق أمنيته بسبب صغر سنه وضعف بنيته .

بعد انتهاء الدراسة الثانوية التحق عاملا فى مصنع لإنتاج العبوات المعدنية . وكانت هذه الفترة تجربة عميقة الأثر فى فكره ووجدانه ، وفى توجيه اهتماماته الأدبية . وعن تلك التجربة المبكرة . كتب يقول : « لأول مرة فى حياتى .. رأيت

بعيني ما الذى تعنيه كلمة الاستغلال » .

فى عام ١٩٤٦ التحق لاجوما بمنظمة يسارية للشباب . ثم التحق بالحزب الشيوعى حتى أوقفت السلطات نشاطه عام ١٩٥٠ . وفى عام ١٩٥٥ لعب دورًا قياديا فى الإعداد للمؤتمر الشعبى الذى التقت فيه كيب تاون بجوها نسبرج لكى يعد إعلان حقوق شعب جنوب أفريقيا الذى عرف باسم « ميثاق الحرية » .

اندمج لاجوما فى النضال السياسى لقومه . لكنه فى غمرة نشاطه هذا ، لم تفارقه نوازعه الخلاقة الأولى . وأخذ يبحث لنفسه عن وسيلة تعبير تستوعب ما يدور فى وجدانه وتوصله للناس . درس التصوير ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه . وتذكر موهبته الأولى التى اشتهر بها فى صباه ، موهبة رواية القصص التى كانت تبهر رفاقه على نواصى الحارات . فبدأ يجرب قلمه فى كتابة القصة ويشترك فى المسابقات القصصية . وبجانب ذلك اتجه إلى الصحافة . فعمل فى « الجارديان الأسبوعية » التى كانت تصدر فى كيب تاون .

فى عام ١٩٥٤ تزوج « بلانش » زميلته فى الدراسة ، وفى العام التالى التحق بالعمل فى مجلة « العصر الجديد » التى ظهرت لتحل مكان الجارديان التى أوقفتها الحكومة . وفى عام ١٩٥٦ قبض عليه بتهمة الخيانة العظمى . وظل فى السجن أربعة أعوام إلى أن صدر الحكم ببراءته . وخلال تلك الفترة كتب عددًا من القصص القصيرة منها « كأس النبيذ » و « وشم وأظافر » و « خارج الظلمة » .. وغيرها .

وفى عام ١٩٦٠ وقعت مذبحة « شاربفيل » المشهورة التى اغتيل فيها المتظاهرون . ومن تلك المذبحة ظل لاجوما فى محنة متصلة من الاعتقال والسجن ، والحبس الانفرادى ، وتحديد الإقامة . استمرت المعاناة حتى سبتمبر ١٩٦٦ عندما غادر جنوب أفريقيا مع زوجته وولديه ليعيش فى لندن .. منفيًا حتى

كلف بالعمل فى هافانا ممثلاً لحزب المؤتمر الوطنى لجنوب أفريقيا .

حتى زوجته بلانش .. لم تنج من المحنة ، فقد قبض عليها ذات مرة وسجنت فى الحبس الانفرادى . وبرغم هذا ، لم يتوقف لاجوما عن الكتابة والعمل فى مجلة « العصر الجديد » إلى أن منعتها الحكومة العنصرية عام ١٩٦٢ .

فى ذلك العام صدرت أولى رواياته الطويلة « نزهة فى الليل » التى تدور أحداثها فى أحياء الفقراء بمدينة كيب تاون وقد استقبلت الرواية بنجاح فورى . والجدير بالذكر أن الرواية لم تنشر فى جنوب أفريقيا بطبيعة الحال .. بل فى نيجيريا .

الكاتب المسرحى النيجرى المعروف « وول سوينكا » قال عن الرواية : « إن لاجوما قد توصل فى صفحاته التسعين ، إلى ما ظل الكتاب الأفريقيون يحاولون تحقيقه طيلة سنوات بأكملها » .

وكتب أحد النقاد قائلا : « هذا كاتب يضع إصبعه على نبض الشعب .. ويحس بكل خلجة فيه » .

وبعدها .. حرمت حكومة جنوب أفريقيا بيع الرواية وحرمت تداولها ، ولكن الرواية طبعت بعد ذلك بقليل فى لندن .

وبسبب هذه الرواية ، حرمت السلطات العنصرية على لاجوما أن يحضر أو يشترك فى أى اجتماع فى جنوب أفريقيا ، أو فى جنوب غرب أفريقيا .. وذلك فى الفترات القليلة التى يكون خلالها مطلق السراح . ومع ذلك ضاقت به السلطات ، فحددت إقامته فى بيته لا يبرحه إلا إذا كان ذاهبًا إلى السجن .

لاجوما وقد حرم من استقبال أى زائر بخلاف طبيبه وأبويه وأبوى زوجته ، عكف على كتابة عدد من القصص القصيرة . ثم كتب روايته الثانية « حبل مثلث الألياف » . وهو يصور فيها كيف تستحيل الحياة الطبيعية فى مدينة فرض على أهلها

أن يعيشوا فى أكواخ صغيرة حقيرة . الرواية صدرت عام ١٩٦٣ .

وعندما سجن بعد ذلك ، وعاد من السجن إلى زنزانة البيت ، كتب روايته الثالثة « عالم حجرى » عن حياة السجن . وقد نشرت هذه الرواية عام ١٩٦٤ . الرواية تصور عالم السجن فى جنوب أفريقيا . عالم حافل بالشخصيات وبقايا الشخصيات . قتلة . لصوص . مجرمون . وأبرياء أيضًا ! وناس كانت جريمتهم غريبة وشاذة . جريمتهم أنهم عندما التقى بهم رجل الشرطة لم يكن مع كل واحد منهم « بطاقة المرور » !

من عالم السجن الذى عاش فيه لاجوما فترة ليست بالقصيرة ، يكتب لنا عن « جريمة » واحدة يشترك فيها كل من يمرون بالعالم الحجرى الموحش . تلك الجريمة ، أنهم أفريقيون ! أنهم ملونون ! أنهم ليسوا من البيض ! أنهم ليسوا من جنس المستعمر ! ! عالم موحش ، قفر . عالم من حجر وصلب وأبواب مغلقة . عالم بلا شجر يمنح ظلا لسكان الحجر الموحش الكئيب .

لاجوما يبدأ روايته بأبيات للشاعر الأفريقى « يوجين ديبس » يقول فيها :

طالما هناك طبقة سفلى فإننى فيها
طالما هناك عنصر إجرامى فإننى منه
وطالما هناك روح واحدة فى السجن
فإننى .. لست حرًّا ..

الرواية تدور حول المعارك الشرسة والقاسية التى تقع داخل السجن من أجل الحياة ، ومن أجل البقاء . وتدور حول الصراع على السلطان داخل السجن ، فى ظلام العنابر المغلقة . صراع شرس يدور حتى النهاية . حتى الموت . وتتشبك كل عناصر الرواية بالرغم عنها حينا،وبإرادتها أحيانًا أخرى . وتظل خفايا هذا الصراع

سرًّا مطويًّا ، عن سلطات السجن . وعن معظم أبطال الرواية .

وفى خلال الإيقاع العنيف داخل السجن ، تتردد أصداء أخرى قادمة من عالم المقاومة والنضال . من الذين يعملون يومًا بعد يوم ، فى هدوء ، وفى شجاعة ، بعيدًا عن الضجيج والصخب . من أجل إيقاظ الوعى فى جموع جماهير الشعب الأفريقى المقهور وتوثيق صفوفه . عمل يومى ينطوى على المغامرة . وسلاح المغامرين – ببساطة شديدة – اقتحام الخطر . وتوقى الخطر . وإذا ما تجاوزوا حدًّا معينًا ، انقلبت المغامرة إلى شلل تام . وانتهى بأصحابه إلى عالم الحجر الموحش الكئيب .

وفى آخر كتبه « فى ضباب نهاية الموسم » يعرض لنا لاجوما ، صورة حديثة من عالم المقاومة ، والمغامرة ، واقتحام الخطر . يعرض خفايا الأسلوب الإرهابى للبوليس فى جنوب أفريقيا ، على ساحة غاية فى الاتساع . من جبهة مراكز البوليس ، إلى أبراج العربات المدرعة . فى الأرض المكشوفة . وفى الحوارى المتربة ، حيث يهاجم البوليس الموتى والمحتضرين ! . من خلف مانشيتات صحف جنوب أفريقيا ، ومن وراء الإعلانات الملونة المضيئة الباهرة تدعو السياح لزيارة جنوب أفريقيا . تجىء قصة هؤلاء الذين يقامرون بحياتهم كل يوم فى الحركة السرية ضد التفرقة العنصرية ، وضد الإذلال العنصرى .

إن هذه الصورة تحدث هناك كل يوم . ولاجوما يروى لنا الأحداث يومًا بعد يوم . لعمل وحياة هؤلاء المناضلين الذين وضعوا حياتهم على أكفهم . من أجل تخليص مواطنيهم من إذلال العنصريين البيض .

إنها قصة « بيوكس » المطارد ، المصمم على النضال تحت قيادة منظمة سرية ، يقع فى أيدى البوليس الذى يعذبه حتى الموت فى الزنزانة . وإذا كان لاجوما فى روايته « العالم الحجرى » كان يرى أن نهاية الذين يقتحمون الخطر غالبًا

ما تنتهى إلى عالم الحجر الموحش الكئيب ، فإنه فى روايته الأخيرة يرى أن المناضلين لتحرير جنوب أفريقيا أصبحوا لا يقامرون بحريتهم فحسب ، بل أصبحوا الآن يقامرون بحياتهم من أجل التحرير ، ويستشهدون . لهذا يهدى روايته إلى « بازيل فبراورى » ورفاقه الذين استشهدوا فى النضال .

لاجوما يعرض لنا هذا ، بأسلوبه المتميز ذى المذاق الخاص . وببراعته الدقيقة فى الوصف . وبحرصه الشديد على نبش أعماق النفس البشرية . وبحواره الممتع الذى ينبض بالحياة . وبضمير كاتب عاش مأساة شعبه كاملة منذ اللحظة الأولى فى حياته . وبيقين ثائر يقول :

« لمدة قرون عاش المستبدون البيض فى بلادنا بحد السيف . ومن الآن ، سيموتون فى بلادنا بحد السيف . لمدة سنوات طويلة حافظ البيض على تفوقهم بالمدفع . ومن الآن ، سنصل إلى الحرية والمساواة عن طريق المدافع . إن طريقنا واضح . ولا يمكن أن نتراجع عنه » .

صرخة احتجاج ضد التمييز العنصرى ، يطلقها الكس لاجوما باسم ستة عشر مليونًا ونصف مليون أفريقى لم يعودوا يطيقون صبرًا على الكدح وبذل العرق فى سبيل ثلاثة ونصف مليون ابيض يتمتعون بكل شىء . بالثراء ، بالامتيازات . أوكما يقول لاجوما فى مقدمة كتابه « التمييز العنصرى » :

« مامن مكان آخر فى عالم اليوم ، تمارس فيه العنصرية بمثل هذه الدرجة الصارخة التى لا تعرف الحياء أوتفرض فيه وتنفذ بمثل هذه الوحشية » .

* * *

فى كتابه « عن الأدب والحياة » يقول لاجوما :

إن المرء لا يستطيع ان يفصل بين الأدب والحياة وبينه وبين المعاناة

وانا عندما اكتب فى عمل من أعمالى أن الفقراء فى جنوب أفريقيا

يضطرون إلى شراء الماء ذاته من مستغليهم ، فإنى أفعل ذلك بأمل أن يتأثر قارئ كتابى إلى الحد الذى يجعله يفعل شيئًا حيال أولئك اللصوص الذين حولوا بلادى إلى فقر مادى وثقافى بالنسبة للسواد الأعظم من السكان .. ».

إن لاجوما يؤمن بأن قلم الكاتب قادر على استنفار الآخرين لكى يعملوا من أجل تغيير الواقع الذى يرفضه . أن تمكن الكراهية العنصرية التى يمارسها البيض فى بلده جنوب افريقيا ، قد أعمى قلوبهم وأبصارهم إلى حد أنهم اصبحوا لا يرون إلا بجانبًا واحدًا فقط .. هو أنفسهم .

وهو لا يكتفى بتسجيل هذا فحسب ..

بل إنه يكشف عن الآثار الاجتماعية التى ترسب فى مجتمعه نتيجة لاضطهاد البيض للملونين . فى قصة قصيرة له بعنوان « فنجان قهوة للطريق » ، يوضح لنا مدى الشراسة التى يلجأ إليهم العنصريون البيض فى إقرار قيم التفرقة العنصرية ، وتحويلها إلى حقائق لا تقبل معارضة أو احتجاجًا ..

لاجوما يحكى لنا فى هذه القصة عن زوجة ملونة أصابت حظًا من التمدن . تقود سيارتها ومعها طفلاها لكى تلحق بزوجها فى مدينة الكاب على بعد مئات الأميال . وقد ظلت هذه الأم تقود سيارتها طول الليل دون توقف . لماذا ؟ لم يكن هناك مكان يقضون فيه الليل ، فالفنادق مخصصة للبيض وحدهم . فى الواقع كان البيض وحدهم هم الذين يسكنون فى هذه المدن . ومن عداهم – باستثناء الخدم – كانوا يعيشون فى منازل متداعية من الطين ، فى الأماكن المخصصة لهم وراء ذلك .

وأحس الطفل بحاجته إلى قليل من القهوة . فتناول الترموس ولكنه وجده فارغًا . وتعلقت رغبة الطفلة المشاغبة بشرب بعض القهوة . كان على الأم أن تحصل لها بأية وسيلة على ما يروى ظمأها . وأخيرًا صادفوا عند نهاية منطقة

خالية ، مقهى قد زينت واجهته بإعلانات قديمة للكوكا كولا . وفى الحائط الذى يتجه إلى المكان الخالى كانت هناك فتحة مساحتها قدم مربع ، أعدت لخدمة غير البيض . على التراب . وقف عدد من الملونين والأفريقيين فى أسمال ، يحاولون أن يطلوا من تلك الفتحة ، وقد تقاربت رءوسهم ، ينتظرون فى صبر فرض عليهم .

على هذا النحو الهادئ يكشف لنا لاجوما عن بعض المفارقات التى فرضتها التفرقة العنصرية .

☐ من حق البيض وحدهم ، أن يدخلوا المقاهى من أبوابها ، وأن ينعموا بالجلوس فيها .

☐ الملونون .. لا يحصلون على ما يريدون إلا عن طريق فتحة مساحتها قدم مربع بطريقة مزرية حقيرة .

ترى ..

ماذا يحدث لو تجرأ أحد الملونين .. فكسر تقليدا من هذه التقاليد ؟

لنقرأ ماذا حدث ..

لقد اقتحمت الأم المقهى . واتجهت إلى حيث كانت امرأة بيضاء ثقيلة الوزن تجلس فى مكان دفع النقود .

قدمت الأم الترموس إليها قائلة :

– هل يمكن أن تملئى لى هذا الترموس بالقهوة من فضلك ؟

وجحظت عينا المرأة لحظة ، ثم صدرت عنها صيحة خشنة تقول :

– قهوة ؟!.. ياإلهى ! فتاة من الخدم حقيرة مثلك تأتى هنا ؟! الخدم والأفريقيون من الخارج . ألا تعرفين ذلك جيدًا وأنت تتحدثين الإنجليزية أيضًا !؟

وثارت ثائرة الأم . وارتفعت ذراعها بالترموس تقذف به المرأة البيضاء وهى تصيح بامتعاض :

- أيتها البيضاء التافهة . أنت .. أنت الخادمة الحقيرة .

وأسرعت الأم إلى عربتها ومضت تقودها فى صمت . ولكن لم يمض عليها وقت طويل حتى أوقفتها الشرطة عند نقطة مراقبة . فقد كانت مكالمة تليفونية قد سبقتها إلى هناك .

هكذا يصور لنا الكس لاجوما كيف تحاول التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا أن تجعل مفهومها لهذه التفرقة أمرًا واقعًا لاخلاص للملونين والسود منه .

والسلطة تستخدم كل وسائل القمع للبطش بكل من يجرؤ على رفع صوته بالتمرد أو الاحتجاج .

والكاتب الحر - مثل لاجوما - حين يرفع صوت تمرد، أو يقول كلمة احتجاج ، فإنه يستهدف - بالكلمة - أن يستنهض بذلك المغلوبين على أمرهم .

وهو بذلك يؤدى رسالته كما ينبغى . وإن انتهى به ذلك فى كثير من الأحيان إلى السجن .. واخيرًا إلى النفى والتشريد .

* * *

إن الاستعماريين العنصريين يدركون خطورة الكلمة الواعية التى تصدر عن الكاتب الحر . ومن خلال هذا الإدراك يلجئون إلى كل وسيلة يدفعون بها خطر هذه الكلمة . وتتنوع وسائلهم بين القمع والإغراء . فهم يملكون وسائل النشر . وهم قادرون على التحكم فى أى عمل أدبى لكاتب لا ترضيهم كتابته فيمنعوه من الظهور . وقد أشار لاجوما إلى هذه الحقيقة فى الكلمة التى ألقاها فى نيودلهى عقب استلامه جائزة لوتس بقوله إن النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا يضطهد الكتاب إلى حد أن الصادقين منهم - الذين أرادوا رؤية أعمالهم منشورة - اضطروا لترك البلاد والكتابة فى المنفى .

لقد عجزت الحكومة العنصرية فى جنوب أفريقيا عن كبت صوت لاجوما ..

فقد نشرت أعماله فى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . وألمانيا . وترجمت أعماله إلى أكثر من لغة ونشرت فى الاتحاد السوفيتى ، والسويد ، والمجر ، وبولندا ، والبرازيل ، ومصر . وأصبحت أعماله مادة تدرس فى الجامعات الأوروبية والأمريكية والأفريقية .

فى رأيه أن الكاتب الحقيق لا يستطيع أن يفصل نفسه عن حياة الناس . وعن النضال لتحقيق السعادة والحرية والعدالة للناس . وتاريخ الشعوب يتضمن أفعال الناس .. ما يقومون به من مجهود . وما يقيمون من إنجازات . وكثيرًا ما يكتب ذلك بالدم . وكثيرًا ما يكتب بالمدفع والمفرقعات والصواريخ كما يحدث فى جنوب أفريقيا ، وفى فيتنام ، وفى العالم العربى .

وهو يؤمن بكلمات قالها مكسيم جوركى ذات مرة ، كلمات تقول : « إن الكاتب هو عيون وآذان العصر » .

ولكن لاجوما من رأيه أنه لكى يستطيع أن يعرض عصرًا بأكمله ، فيجب أن تكون عدسات عينى الكاتب حادة . ووجهة نظره سليمة . أى أن يتخذ الموقف الذى يتوافق – بقدر الإمكان – مع العالم ومثله العليا .

فى عام ١٩٦٧ حضر الكس لاجوما مؤتمرًا فى استكهولم ضم كتابًا من أفريقيا ودول اسكندنافيا .. ودار فى هذا المؤتمر نقاش حاد حول الكتاب .. هل ينبغى للكتّاب أن يتفرغوا للكتابة والإبداع الفنى فقط .. أم يشاركوا أيضًا فى الكفاح المسلح ؟

قال لاجوما رأيه بطريقته الهادئة التى اشتهر بها :

« يكفى للإجابة عن هذا السؤال أن نقول .. إن الكتّاب والشعراء الفيتناميين يقومون بكلا العملين معًا ! » .

القارىء الأفريقى.. أولا

ومرة أخرى قال الصوت فى اتهام : أماه أعطنى شيئًا آكله . بالطبع لم يكن يعرف ، لم يكن يستطيع أن يعرف أن المرأة لا تملك شيئًا ، فقد استنفدت آخر ما لديها من الدقيق . كانت قد قررت ألا تزعج الجيران مرة أخرى لأن مواردهم قد نضبت كذلك . ومع هذا واصل الغلام النظر إليها فى تأنيب كما لو كان يتهمها بأنها بلا رحمة ...

« من قصة : ذهب مع العطش »

مؤلف هذه القصة « جيمس نجوجى » من كينيا ، يكرر على لسان بطل القصة ، سؤالا يقول :

لماذا يولد بعض الناس لمكابدة العناء ؟ ولمواجهة كل هذا الشقاء ؟!



● واثيونجو نجوجي ●

(جيمس نجوجي سابقا)

ولكن المؤلف – برغم كل شيء – يرى أن التخلص من الألم – أيا كان مصدره أو سببه – هو ذلك الشعور المحبب إلى نفس الإنسان فى صراعه مع الحياة .
إن هذا الشعور – فى كل صوره – ليس سوى الإحساس بالحرية .

والطريق إلى هذا ليس ممهدًا . فالرحلة غالبًا ما تكون طويلة . والطريق مليء بالأوحال . ولكن هذا لا يهم . المهم أن يصل الإنسان دائمًا إلى هدفه فى النهاية .

لابد من الإصرار . والتصميم والصلابة .

ربما استطاعت هذه الأفكار من « ذهب مع العطش » أن تعطينا بعض ملامح شخصية « جيمس نجوجى » الذى نتعرف عليه .

* * *

ولد يوم ٥ يناير ١٩٣٨ فى « ليمورو » بالإقليم الأوسط قرب « نيروبى » عاصمة كينيا . نشأ وسط أسرة تضم العديد من الإخوة والاخوات لأب يهوى تعدد الزوجات . فى السادسة من عمره أرسلته أمه إلى إحدى مدارس التبشير . وفى العام التالى أرسلته إلى مدرسة «كيكويو» فى «كارينجا» حيث انتظم فى الدراسة والتعليم حتى عام ١٩٥٥ باستثناء فترة بين عامى ١٩٤٨ – ١٩٥٠ حيث توقفت الدراسة فى أنحاء كينيا عند نشوب ثورة « الماو ماو» ضد المستعمر البريطانى .

فى عام ١٩٥٥ التحق بمدرسة « اليانس » العليا ثم فى عام ١٩٥٩ التحق بجامعة «ماكيرير» فى «كمبالا» عاصمة أوغندة وبعد تخرجه فى الجامعة عام ١٩٦٤ عمل فى جريدة يومية تصدر فى نيروبى . واستمر فيها لبضعة شهور ، وبعدها سافر إلى بريطانيا ليستكمل دراسته العليا بجامعة « ليدز » .

وفى عام ١٩٦٧ عاد إلى وطنه ليعمل محاضرًا متخصصًا فى اللغة الإنجليزية بجامعة نيروبى . وفى يناير ١٩٦٩ أضرب طلبة الجامعة بسبب بعض المطالب . وقدم نجوجى استقالته من الجامعة احتجاجًا على الإجراءات التى اتخذتها السلطات لقمع

الطلبة المتظاهرين بأسلوب غاية فى القسوة والشراسة . وفى عام ١٩٧٠ قبل وظيفة أستاذ زائر بجامعة « نورث ويسترن » فى « ايفانستون » بولاية إلينوى الأمريكية .

وفى أثناء مرحلة الدراسة بجامعة « ماكيرير » كان نجوجى يعمل محررًا فى مجلة « بن بوينت » وفى مجلة « زوكا » وهما مجلتان أدبيتان تصدران فى نيروبى .

وبين عامى ١٩٦٧ – ١٩٦٩ صدرت ثلاث من روايات نجوجى فى كتب مطبوعة وهى : « لا تبك ياطفلى » و « النهر الفاصل » و « حبة من القمح ». بالإضافة إلى مسرحية « الراهب الأسود » .

* * *

« لا تبك ياطفلى » كتبها نجوجى فى أثناء دراسته بجامعة ماكيرير فى كمبالا ، وهى أول رواية تصدر باللغة الإنجليزية لأى من كتاب شرق أفريقيا . وقد فازت بجائزتين . جائزة فى مهرجان داكار للفنون الزنجية عام ١٩٦٦ . وجائزة ثانية من المكتب الأدبى لشرق أفريقيا . أما رواية « حبة من القمح » فقد كتبها نجوجى أثناء دراسته بجامعة ليدز ببريطانيا .

روايته « لا تبك ياطفلى » التى كتبها « نجوجى » فى مرحلة الدراسة بكمبالا ، تدور فى جو ثورة « الماو ماو » فى كينيا . وهو يتعرض فيها لمشاكل تختلف عن تلك التى يعالجها كتاب غرب أفريقيا وجنوب أفريقيا . إنه يتعرض للمشاكل التى – ظهرت مع فترة الانتقال القومية التى تحتم على المجتمع القبلى فى كينيا أن يتعرض لها ولما يصاحبها من تغييرات . وهو يعرض الأحداث من خلال غلام تتفكك أسرته بتأثير التغييرات . ونلمح من خلال الأحداث التأثير الفاسد للمدينة . وتأثير التمييز العنصرى . الرواية ظهرت عام ١٩٦٤ واستقبلت بترحيب شديد .

والواقع أن نجوجى منذ أن بدأ يكتب . حرص على معالجة قضايا شعبه الملحة .

وموقفه من تراث الماضى ومعركة الاستعمار . وحرص على أن يرسم دائمًا صورة واقعية لهذا الصراع .

وهو هنا يختلف عن العديد من زملائه كتاب افريقيا . فالكاتب الأفريقى بدأ أساسًا يكتب لقراء غير افريقيين . أو بمعنى أدق ، بدأ يكتب لناشرين يبحثون عن أشياء غريبة مثيرة للقراء الغربيين! ولكن نجوجى منذ البداية يكتب لقراء أفريقيين ، مؤمنًا بأن مستقبل الكتابة الأفريقية يكمن فى موضوعات ما بعد الاستقلال . وكان هو واحد من القلة التى برزت بأعمالها فى هذا المجال . فاتجه بكل الإخلاص إلى الكتابة الاجتماعية يصور مختلف الصراعات . الصراع بين المدينة والقرية . والصراع بين الأغنياء والفقراء . وصراع الأقليات المضطهدة ضد الظلم الاجتماعى . وصراع الجماهير ضد خيانة افريقيا . والصراع الذى يدور داخل المجتمع القبلى بسبب القيم المتغيرة فى بيئة تشهد تغييرات سريعة . والصراع حول الدين .. والخرافة .. إلخ .

يبدو هذا الاتجاه واضحًا فى عمله التالى « حبة قمح » التى كتبها خلال مرحلة الدراسة فى بريطانيا . إنه يدور بأحداث هذه الرواية حول يوم استقلال كينيا (١٢ ديسمبر ١٩٦٣) ، وفيها يعترف « موجو » أحد أبطال الثورة – فى لحظة الذروة فى الرواية – بأنه كان قد وشى بالبطل الحقيقى للثورة «كيهيكا» . وشى به لدى السلطات البريطانية . وعلى امتداد الرواية تنسف سمعة شخصيات أخرى . ويتضح أن البعض – ممن يفترض فيهم أنهم أبطال – قد أذنبوا وأخطئوا حين تصرفوا على ضوء حسابات باردة ! أو حين خانتهم أعصابهم ! أو حين خانوا ! أو حين وشوا بآخرين !

* * *

نجوجى ، بعد فترة وجيزة من استقلال بلده استطاع أن يصف الثورة دون محاولة من جانبه لأن يضفى عليها صبغة رومانسية . إنه يصف بكل الروعة والتألق

والصراحة وإن كانت مؤلمة . إنها أكثر من مجرد رواية سياسية . بل رواية تمس جوانب عديدة من الحياة الأفريقية المعاصرة فى كينيا وفى دول أفريقية أخرى أيضًا .

وبعدها تبدأ القضايا العامة تشغل باله . الصراعات والمشاكل القبلية . ظهور وعى قبلى على غرار الوعى الطائفى فى الهند ، مما يؤثر على التفاصيل الدقيقة للسلوك اليومى للإنسان الأفريقى . الصدام بين الأفريقى والأوربى . بين الوثنى والمسيحى . بين البدائية والعصرية .

ويضع كل هذا فى روايته « النهر الفاصل »

إنه يتناول موضوعًا بسيطًا يدور حول فكرة روميو وجوليت ، ولكنه يضيف للقصة أبعادًا جديدة تمثل ثقافته وحضارته الخاصة . فما يفصل بين البطل والبطل فى « النهر الفاصل » ليس فقط مسألة العشائر المتنازعة بل سطوة التقاليد أيضًا . إن الهوة التى تفصل بين أسلوبين فى الحياة متغايرين : إنما تتمثل فى النهر الذى يفصل بين الجماعتين المتخاصمتين .

الصراع هنا صراع قبلى أكثر من كونه صراعًا عنصريًّا . فالبطل « واياكى » يشرع فى إجراء حركة تجديد تتفادى القبلية والإقليمية والعنصرية . وهى حركة لا ترتبط بالمسيحية . ولكن الظروف وتطورها يفوقان طاقة البطل فى حركة التجديد . فالقرية القبلية ، والقرية المسيحية اللتان يفصل بينهما نهر تظلان منفصلتين بشكل يدعو إلى اليأس أكثر من ذى قبل . لقد أدى التغيير فى بعض الأحيان إلى أشياء أفضل . ولكنه فى أحيان أخرى لم يؤد إلا إلى إضعاف الأفريقيين وامتصاص حيويتهم . بل إنه أدى أحيانًا إلى جعلهم موضع سخرية ! .

إن واياكى ، ولد ونشأ فى إطارات تراث أفريقى شديد الاعتزاز بنفسه . فهو ابن موجو واكيبيرو . وهو عراف من كيكويو تنبأ بكارثة مقدم « الفراش » أى الرجال البيض . وقد حذر موجو بأن المرء « لا يستطيع أن يقطع الفراش بسكين »

وعلى الإنسان أن يتعلم أساليب البيض الجديدة حتى يتمكن من محاربتهم . وهو نفس المعنى الذى تعبر عنه العسكرية الحديثة بعبارة : « اعرف عدوك حتى تستطيع أن تنتصر عليه » .

نجوجى بنى روايته « النهر الفاصل » على هيكل متشابك الخطوط من الرموز الأفريقية والمسيحية ، لها ما يقابلها فى حياة شخصياته . وقد ترك موجو ذريته بعد أن حملها بهذه النبوءة .

« أقول إنه من نفس هذه الشجرة يولد ولد ، ويكون من واجبه أن يقود الشعب وينقذه » .

ولكن والد واياكى يضيف إلى هذه الوصية قولاً آخر . فينصح ولده بالذهاب إلى البعثة التبشيرية ليتلقى العلم على أيدى البيض ولكنه يهيب به – فى نفس الوقت – أن يخلص للطقوس القديمة .

إن واياكى يصارع الالتزامات القبلية التى تبدو كأنها تستغرق النفس . وبطريقة ما تبدو الأفكار مبتذلة ، ولكنها تساير تلمس الإنسان لطريق يفهم منه دوره الحقيقى فى المجتمع الجديد .

إن المشكلة القبلية فى أفريقيا بصفة عامة ، وفى كينيا بصفة خاصة ، واحدة من أهم المشاكل التى واجهت كل الذين تعرضوا للحياة الاجتماعية . ونجوجى واحد من الكتاب الذين تصدوا لها بشجاعة فى مسرحية « الراهب الأسود » . وهى مسرحية تقليدية من ثلاثة فصول أعطى اسمًا لكل منها . فالفصل الأول اسمه « البلد » . والثانى « المدينة » والثالث « عودة الراهب » .

الجديد فى المسرحية أنها مكتوبة شعرًا ونثرًا فى وقت واحد . فحينما يدور الصراع حول المشكلة السياسية فإن الحوار يدور نثرًا . أما النغمة السائدة فى المسرحية كلها فهى الشعر .

مثلا .. فى الفصل الأول من المسرحية ..

الأم « ينوبى » تتعذب على ابنها « ريمى » الهارب من القرية إلى المدينة .
« وتونى » زوجته تتعذب أيضًا ، الأم تريد أن تستعيد الابن لأنها – أولا – أم !
ولأنها ثانيًا تخشى على تونى زوجة ابنها .!! والزوجة تعبر عن مشاعرها قائلة :

نعم ..
إنى لا أستطيع أن أعيش دون رجل
دون رجل يدفئ سريرى
رجل يسألنى عن طعام العشاء
رجل يسألنى أن أغسل ملابسه
وطفل من جسدى
طفل ينادى .. يا أمى

أمه تريده أن يعود . زوجته تريده أن يعود . والقبيلة أيضًا تريده أن يعود .
الكل يريده أن يعود ليتحمل مسئولياته .. كابن ، كزوج ، كقائد .

وريمى – بطل المسرحية – واحد من الذين نالوا حظًا وافرًا من التعليم حتى
الجامعة . واحد من الشخصيات المسرحية يصفه بعبارة تقول :

« لقد فاق علمه علم البيض والسود مجتمعين .! »

لم يكن إذن مجرد واحد من افراد القبيلة ، ولم يكن مجرد ابن لـ« ينوبى » ، ولم
يكن مجرد زوج لـ« تونى » ، ولكنه – على حد تعبير واحد من القبيلة – كان بمثابة
زوج للقبيلة كلها . وبمعنى آخر .. أنه رمز للقبيلة كلها . ولكن هذا الرمز هرب من
القرية وذهب ليعيش فى المدينة .

ونجوجى يعالج فيها صراع الإنسان بين تقاليد القبيلة ، وبين متطلبات المجتمع

الحديث . أيكون ولاء الإنسان للقبيلة نفسها أم للدولة ؟ وهذا الصراع لا ينشأ – بالطبع – فى وجدان الأمين ، أو الذين حصلوا على قدر ضئيل من العلم والثقافة ، ولكنه يصبح صراعًا حادًّا للافريقيين الذين تعلموا وتثقفوا وأصبح الواحد منهم يجد نفسه موزعًا بين الولاء للفكر الجديد ، والدولة الجديدة ، والنظام الجديد ، وبين القبيلة التى تتصور أنها تشد هؤلاء المتعلمين المثقفين إليها .

والحل الذى يصل إليه نجوجى لإنهاء هذا الصراع .. هذه العبارة التى تجىء على لسان « ريمى » بطل المسرحية فى الفصل الثالث حين يقول :

« يجب أن نعود إلى أرضنا . ونساعد أنفسنا . نبنى مدارسنا . نطرح قلوبنا وعقولنا لنخلق أمة . وعندئذ سوف تختفى روابط القبيلة والعنصرية » .

* * *

عندما قابلت نجوجى فى صيف ١٩٧٣ بموسكو . سألته :

– من هو الكاتب فى رأيك ؟

قال :

– إن الكاتب ضمير شعبه . إنه الهادى لجماهير أمته فى نضالها من أجل الفرد ، ومن أجل سعيها نحو غد أفضل .

وأطرق نجوجى برأسه قليلا .. ثم أضاف :

– إن هذا يفرض على الكاتب مسئولية كبيرة . إنه المسئول عن تسليط الأضواء على مشاكل قومه ومجتمعه ، ومسئول أيضًا على خلق الأفكار التى تؤدى إلى حل هذه المشاكل .

قلت :

– هل يمكن أن نطبق هذا الرأى على الكاتب فى أى بلد أفريقى ؟

قال :

– إن الشعوب الأفريقية تمر بمراحل متفاوتة فى التطور . بعض الشعوب مازال يرزح تحت الحكم الاستعمارى البغيض . والبعض يناضل من أجل استكمال التحرير الوطنى . والبعض الثالث حصل على الاستقلال وبدأ يناضل من أجل اعادة البناء السياسى ، والاقتصادى والاجتماعى . وهكذا فإن دور الكاتب يختلف من بلد إلى بلد . وفق المرحلة التى يجتازها بلده . ولكن الكاتب فى كل الأحوال . مطالب بأن يكرس إبداعه – كيفما كانت وسيلته التعبيرية – ليكون انعكاسًا لضرورات المرحلة وهو مطالب – فى نفس الوقت – بأن يعطى قومه صورة واضحة المعالم عن المستقبل كما يتصوره . إن مهمة الكاتب أن يتنبأ بهذا المستقبل . لأنه – فى نبوءته – يحدد الطريق السليم لمسيرة الجماهير . وهذا ما يؤكد ما قلته لك ، من أن الكاتب هو ضمير شعبه . وهادى أمته .

* * *

نجوجى يتخذ موقفًا واضحًا من الغزو الثقافى الأجنبى . لهذا فهو يطالب بنظرية جديدة للأدب . قادرة على أن تخلق بين الكاتب والقارئ وعيًا بدور كل منهما فى مواجهة هذا الغزو الدخيل . ومحاربته . وكشفه . والغزو الثقافى – فى رأى نجوجى – من صنع الإمبريالية . والاستعمار . والاستعمار الجديد . والصهيونية . وهذا الغزو موجه – بالدرجة الأولى – إلى دول العالم الثالث ، من خلال المؤسسات الصحفية ، والإذاعية ، والسينمائية ، ودور النشر ، والجمعيات والمؤسسات الثقافية التابعة للمخططين لهذا الغزو .

ولهذا :

فان نجوجى ، بحكم رئاسته للجنة الثقافية بالمؤتمر الخامس للكتاب الأفريقيين والآسيويين ، يطالب العالم الثالث بأن يقوم على الفور بإنشاء دار نشر أفريقية آسيوية تتولى ترجمة ونشر أعمال الكتاب المعاصرين فى العالم الثالث . وترجمة نشر

أعمال مختارة من التراث الأفريقي والآسيوى . وفى الوقت نفسه تقوم دار النشر هذه بإتاحة الآداب التقدمية من كل انحاء العالم للقراء فى بلدان أفريقيا وآسيا .

إننا أمام كاتب تشغله قضايا قومه . يشغله الإنسان فى أفريقيا الذى يتطلع إلى غد أفضل . لهذا كثيرًا ما نلمح فى مختلف أعماله تساؤلات تلح على ذهن الإنسان فى أى مكان . تساؤلات تبقى دائمًا بلا إجابة . « **هل الحياة كلها تطلع وشوق ولا شىء يتحقق ؟ هل قدر للانسان دائمًا أن يعيش فى فراغ غريب يطادره كأنه وحش كاسر لا يتركه يعرف طعم الراحة . حياة يعطى فيها الإنسان ولا يأخذ فقط ؟** » .

إن الإنسان عند جيمس نجوجى لا يملك إلا أن يواصل حياته وهو يرى فى النهاية دائمًا جمال الحياة بالرغم من المتاعب والمصاعب .

لأن نجوجى حرص منذ بداية عهده بالكتابة ، على أن يكتب للقارئ الأفريقى . ولم يكن يهمه الكتابة لناشر يبحث عن أشياء غريبة ومثيرة للقارئ الغربى . ولأن هذا الكاتب الأصيل الذى شغلته قضايا قومه ، وشغله الإنسان فى أفريقيا ، وشغلته صراعات مجتمعه فتمسك بها وكرس لها قلمه وفكره ، فقد منح جائزة لوتس للأدب الأفريقى الآسيوى عن عام ١٩٧٣ تكريمًا لشخصه وتقديرًا لإبداعه الأدبى .

* * *

عندما كتبت إلى نجوجى أخطره بقرار المكتب الدائم للكتّاب الأفريقيين الآسيويين بمنحه الجائزة كتب يقول :

« لم أكن أتصور أبدًا أن كتاباتى المتواضعة ، سوف تلفت النظر وتشد الانتباه ، إلى حد يجعلنى أهلا للحصول على هذه الجائزة العظيمة .

إن نجوجي الذى يعمل الآن استاذًا بكلية الآداب بجامعة نيروبى بكينيا ، والذى كان يعرف باسم « جيمس نجونجى » قد تخلى نهائيًا عن اسمه المسيحى . ليتمسك باسمه الأفريقى « واثيونجو نجوجى » ، وهو يرجو من كل الناس أن يكتبوا إليه ويحدثونه باسمه الأفريقى .

كاتب أفريقى . يحمل اسمًا افريقيًا . يحرص – كل الحرص – على أن يكتب أولا للقارئ الأفريقى .



الطبيب يقاتل !!

أيها الأسود المغلوب على أمره فى هارلم ..
أيها الراقص فى شيكاغو
أيها الخادم الأسود القادم من الجنوب
أيها السود القادمون من أفريقيا
أيها السود من كل أنحاء العالم
إننى أضم صوتى الواهى
وإيقاعى البسيط ..
إلى أصواتكم وإيقاعاتكم
إننى أصحبكم ..
حيث تلتقى أفريقيا
على الطريق ..

« من قصيدة : صوت الدم »



• أوجستينونتو •

الشاعر .. يتجه بهذا النداء إلى كل السود فى العالم ، الذين يكافحون من أجل حريتهم وكرامتهم ، لأنه يدرك عن يقين أن كل الملونين فى العالم – أصلا – من أفريقيا . بل إن السود فى هارلم وشيكاغو وفى كل أنحاء أمريكا – فى الأصل – من وطنه « انجولا » . وقد شحنهم إلى هناك – منذ مئات السنين – تجار العبيد وسماسرة الرقيق من المستعمرين البرتغاليين البيض .

من خلال هذا اليقين يضيف الشاعر – فى نفس القصيدة – بنبرة تكشف عن مشاعره كطبيب ، فيقول :

أيها السود فى كل أرجاء الدنيا
إننى أحس بكم جميعًا
وأحيا آلامكم ..
يا .. إخوتى

إن الشاعر والطبيب الأنجولى « الدكتور أوجستينو نتو » قائد الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ، يؤمن بأن روح التضامن ، من شأنها أن تضاعف قوة الشعوب التى تناضل من أجل حقوقها المشروعة ، ويؤمن أيضًا بحقيقة : « أن ما أخذ بالقوة ، لا يسترد إلا بالقوة » .

* * *

قبل أن نتحدث عن حياة الشاعر الطبيب قائد الثورة المسلحة ، لنتعرف على أنجولا ذاتها .

مساحة أنجولا تعادل مساحة مصر مرة وثلثا . وتقع على الساحل الغربى لأفريقيا فى نصفها الجنوبى .

منذ خمسة قرون تقريبًا كانت أنجولا مناطق شاسعة . وأرضًا مجهولة للدنيا .

وبعد اكتشاف القارة الأمريكية ، بدأ تجار الرقيق البرتغاليون يفدون إليها . وأصبحت عملية تصدير وشحن العبيد من أنجولا للقارةالجديدة عبر المحيط ، موردًا ممتازا للأموال والذهب لهؤلاء المستعمرين .

وبمرور الأعوام ، تحولت العبودية من هذا الشكل التقليدى القديم ، إلى أنماط حديثة للعبودية . وتحول الأفريقيون بمقتضاها إلى احتياطى من عمال السخرة الذين يجلبون لخدمة البيض . وفى أنجولا – بالذات – قام المستعمر باستخدام المواطنين للقيام بالأعمال الشاقة التى تدر على البيض أرباحًا خيالية .

فى نفس الوقت حاول الاستعمار بكل الوسائل والسبل . محو ثقافة الشعب الأنجولى ، والقضاء على اللغة المحلية لتحل مكانها اللغة البرتغالية . وحاول أن يفرض على البلاد – إلى جانب الاستعمار السياسى والاقتصادى – استعمارًا فكريًّا لا نظير له .

ومنذ ثلاثين عامًا أصدر الكاتب البريطانى « بازيل دافيدسون » مؤلفًا بعنوان « العبودية الحديثة » موضوعه أنجولا وشعبها وما يعانيه من آلام وعذاب . وهنا أود أن أعرف القارئ بشخصية « دافيدسون » . فهو ليس مجرد كاتب أو أكاديمى جعل من أفريقيا بمشاكلها وآلامها موضوعًا لكتاباته . بل هو إنسان شريف يؤمن بأن كرامة الملايين من رفاقه البشر هى جزء من القضية التقدمية التى كافح من أجلها ، حين حمل السلاح ليقاتل بجانب قوات الأنصار بقيادة « المارشال تيتو » فى حرب الجبال بيوغوسلافيا . ثم كرس قلمه بعد ذلك ليبحث ويكتب باسم الملايين من المظلومين ، والأميين ، والذين حرموا حرية التعبير عن آمالهم وآلامهم فى أفريقيا .

بازيل دافيدسون يختم كتابه « العبودية الحديثة » بعبارة مؤثرة عن شعب أنجولا تقول :

« حتى ولو لم يستمع الله إلى صرخاتهم . فلسوف تجد هذه الصرخات طريقها

إلى قلوب كل من ينادى بالعدالة والرحمة » .

وفى مطلع عام ١٩٧٤ .. صدر لنفس المؤلف كتاب جديد بعنوان « فى وجه العاصفة » الفصل الأخير من الكتاب بعنوان « ثورة الفقراء » وموضوعه الكفاح المسلح الذى يخوضه شعب أنجولا بقيادة الشاعر الطبيب الدكتور نتو . يقول المؤلف :

استطاع شعب انجولا بثورته المسلحة خلال عشرة أعوام فقط ، أن يطور حركته الثورية التى أصبح لها كيانها وتأثيرها » .

ثم يضيف دافيدسون قائلا :

« منذ عشرين عامًا ، كتبت عن تعاسة وشقاء العمال فى أنجولا ، على أمل أن تصل صرخاتهم إلى قلوب عادلة رحيمة . واليوم أكتب عن أبناء هؤلاء العمال الذين شبوا عن الطوق . ولجئوا إلى تلال أنجولا وسهولها ، ليقاتلوا من أجل حريتهم التى سلبها منهم الاستعمار . لقد حولهم الاستعمار البرتغالى على مدى قرون طويلة إلى مجرد أدوات . إن الصورة اليوم تختلف تمامًا . صحيح أن الطريق أمامهم شاق وطويل وصعب . ولكنهم قطعًا وضعوا أيديهم على أول الطريق » .

* * *

هذه هى الصورة الآن كما يصفها كاتب محايد منصف ، لقوم وصفهم بأنهم التعساء الذين كانوا أكثر الناس حرمانًا ، وأقلهم شأنا . اليوم استطاعوا باستخدام العقل والشجاعة ، ان يشكلوا ظروف النضال من أجل تحرر لا ينتهى عند حد . ومن أجل التغيير الجذرى لأوضاع فرضت عليهم منذ خمسمائة عام .

الدكتور نتو قائد حركة التحرير الوطنية يصف الصورة الجديدة بقوله :

« توجد روح جديدة . إن ماكان يمكن حله فى الماضى بالمناقشة الهادئة

السلمية ، لابد وأن تحله الجماهير المضطهدة عن طريق الصراع المسلح » .

والآن ..

بعد أن تعرفنا على الوطن الأفريقى أنجولا .. لنتعرف على شاعرنا الطبيب القائد المقاتل .

ولد فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٢ فى « ايكولو ايبنجو » قرب « لواندا » فى أنجولا . تلقى تعليمه حتى نهاية المرحلة الثانوية فى لواندا . بين عامى ١٩٤٤ - ١٩٤٧ اشتغل فى الخدمات الصحية بأنجولا . فى اثناء هذه الفترة لعب دورًا هامًا فى إقامة جمعية ثقافية فى لواندا . كانت التنظيمات والجمعيات السياسية محظورة من جانب سلطات الاحتلال ولكن الجمعية الثقافية كانت ستارًا لتلافى الوقوع فى المحظور ! . وسرعان ما أصبح « نبرة وطنية واضحة » .

فى عام ١٩٤٧ سافر لدراسة الطب فى « كويمبرا » بالبرتغال . فى أثناء سنى الدراسة ، نشر عددًا من قصائده .. القصائد كانت صوت قومه المعذبين ، المقهورين .

فى عام ١٩٥٢ اعتقلته السلطات البرتغالية لاشتراكه فى المظاهرات . وما لبث أن أفرج عنه . ثم اعتقل مرة أخرى خلال المدة من فبراير ١٩٥٥ إلى يونيو ١٩٥٧ . وفى العام التالى حصل على درجته العلمية وأصبح من حقه ممارسة مهنة الطب . وبدلا من العودة فورًا . ساهم مع آخرين فى تأسيس حركة مناهضة الاستعمار فى قلب لشبونة العاصمة ! .

فى عام ١٩٥٩ عاد إلى أنجولا . وعمل طبيبًا فى القرية التى ولد فيها ، ممارسًا مهنته الإنسانية .

بعد هذه العودة ، فى قصيدة بعنوان « رفع العلم » يقول :

لما عدت إلى بلدى
كان يوم العودة مختارًا
وكانت الساعة أزفت
حتى شاطئ الأطفال اختفى
كذلك أنت
وأصحابى الخلصاء . وإخوتى
بونجو ، جاسبار ، اليديو ، سانويل
ومن أيضًا غير هؤلاء ؟..
مئات بل آلاف من الأصدقاء
بعضهم .. اختفى إلى الأبد !
ولكنهم .. منتصرون أيضًا إلى الأبد
فى هذا الموت ..
فى سبيل الحياة
سواعد الرجال
شجاعة الجنود
رقة الشعراء
والكل ، الكل يبذلون كل الجهد
ليشيدوا بذكرى الأبطال
أنجولا كنلواجى
رنيو جنجا
والكل ، الكل يبذلون كل الجهد
ليرفعوا عاليًا علم الاستقلال

فى سنة ١٩٦٠ انضم نتو إلى « الحركة الشعبية لتحرير أنجولا » وفى الثامن من يونيو من نفس العام قبض عليه فى قريته . وفى نفس اليوم أقدمت سلطات الاحتلال على مذبحة وحشية بين المواطنين . ويسقط منهم أكثر من ثلاثين شهيدًا . واكثر من مائتى جريح .

ليس هذا فقط .

بل قامت السلطات بحرق القرية كلها !.

ويصبح هذا الحدث الدموى بداية العنف والقمع والإرهاب الذى كان ذروته اعتقال « نتو » وترحيله إلى لشبونة ليسجن هناك .

ووجهت حركة التحرير نداءً إلى الشعب الأنجولى ببدء المقاومة عن طريق الكفاح المسلح . وفى فجر يوم ٤ فبراير ١٩٦١ كان بعض المناضلين من أعضاء الحركة يتجهون إلى سجن « لواندا » حيث اعتقل عدد من زعمائهم وزملائهم ، فى محاولة لإطلاق سراحهم بالقوة . وكان هذا العمل ، الشرارة التى أشعلت نيران الكفاح المسلح للشعب الأنجولى تحتَ قيادة حركة التحرير ، ليقرر مصيره بنفسه ويحطم قيوده وأغلاله .

بعد فترة فى سجون لشبونة ، نقل نتو إلى جزيرة « سانتو انتاو » إحدى جزر « الرأس الأخضر » وما لبث أن أعيد من جديد إلى لشبونة . وفى أغسطس ١٩٦٢ تمكن نتو من الهرب . وسافر إلى كينشاسا بالكونغو ، ليصلح ما بين « هولدن روبرتو » قائد إحدى حركات التحرير ، وبين « ماريو دى اندرادى » قائد حركة أخرى للتحرير ، وسرعان ما أصبح نتو قائدًا للحركة الشعبية لتحرير أنجولا .

وبعدها بدأ ينظم ويقود حرب عصابات واسعة فى شرق أنجولا .

وتحس الجماهير بالشاعر الذى تخلى عن مهنة الطب لشفاء أمراض الجسد ، ليتحول إلى ثائر يعالج أمراض شعب ووطن استمرت أكثر من خمسمائة عام .

ويحس الناس أنه لم تعد هناك رواسب مجازية بين نار الشعر ، ونار القنابل اليدوية ومدافع المورتر الواجب استخدامها ضد العدو البرتغالى .

وبعد عدة أعوام .. استطاع النضال المسلح بالقيادة المستنيرة للشاعر الطبيب المثقف المناضل أوجستينو نتو أن يحرر أكثر من ثلث أنجولا من أيدى الطغاة . واستطاع أن يدير القتال فى عشر مقاطعات من الخمس عشرة مقاطعة التى يتكون منها الوطن الأنجولى .

إن الطغاة لم يتمكنوا من إطفاء البريق فى عيون الناس فى أنجولا . ولم يستطيعوا أن يحجبوا النور عنهم . ولم ينجحوا فى اقتلاع جذورهم . فقد بذل المناضلون والشهداء دماءهم من أجل الحرية ، ومن أجل الكرامة الإنسانية .

وهذا ما يعبر عنه الشاعر فى قصيدة « صوت الدم » بكلمات مضيئة ، تتجاوب فى صدورنا ، فتمنحنا العزيمة والقوة ، وتسدد خطانا . لنتذكر هذه الكلمات ونحن نخوض معركتنا النضالية بالبندقية والكلمة من أجل الحياة .

يقول نتو :

أيتها الرغبة فى نفسى
لتتحول إلى قوة عارمة . .
لتدعم ضميرى القانط

* * *

قبل أن نتعرف على « أوجستينونتو » كشاعر بعد أن عرفناه كمناضل ومقاتل — يجدر بنا أن نعود قليلا إلى خمسة قرون مضت لنفهم الأوضاع الثقافية فى أنجولا وفى المستعمرات البرتغالية بصفة عامة .

كان من أول أهداف الاستعمار البرتغالى ، القضاء على المجتمعات الوطنية

الأصيلة فى المستعمرات قضاء تامًّا . وقد تمّ لها ذلك بالفعل فى أنجولا . بل وتمّ لها أيضًا أن تجردها من ثقافتها تجريدًا منهجيًّا .

ونادى الاستعمار البرتغالى بنظرية جديدة . نظرية « الاندماج بين الأجناس » وهى نظرية تفترض – بالضرورة – غرس السياسة الأجنبية فى البلاد وتثبيتها وإن بدت للعين أن مبدأها يعود إلى فكرة « الاتصال بين الثقافات » . وإن بدا للناس أيضًا أن قوى الاستعمار حريصة على احترام عادات وتقاليد أهل البلاد الأصليين . ولكن الحقيقة أن نظرية الاندماج ليست إلا إتمام محو الثقافة الوطنية ، والاندماج فى ثقافة الجانب الأقوى الذى يسيطر ويستعمر ، الاندماج فى ثقافة البرتغال .

ولم يعد أمام الذين يعتبرون الثقافة الوطنية شرفًا لوجودهم ، إلا سبيل واحد . هو المقاومة . . وإذكاء الروح الوطنية ضد المستعمر .

فى الخمسينات من هذا القرن ، أخذت طائفة محدودة من الطلبة والمثقفين الذين يدرسون فى البرتغال ، تحس وعيًا حادًا بضرورة الرد على الصورة التى ترسمها البرتغال للرجل الأسود . وضرورة تخطيط الطرق أمام تأكيد الذات القومية .

وفى قلب لشبونة العاصمة الفاشستية تشكل « مركز الدراسات الأفريقية » . وهى جماعة وضعت لنفسها منذ البداية هدفًا واضحًا . هو تعقيل مشاعر الانتماء إلى عالم القمع والقهر . وإذكاء جذوة الوعى القومى . عن طريق تحليل الأسس الثقافية لأفريقيا .

كان دعاة هذه الحركة وأصحابها : « الشهيد أميلكار كابرال » قائد النضال المسلح لتحرير غينيا بساو التى استقلت أخيرا وانضمت إلى الأمم المتحدة وإلى منظمة الوحدة الأفريقية . «و « أجوستينو نتو » . وجوزيه نيتزيرو » . و « ماريودى اندرادى » .

كان لهذه المبادرة صدى عند الشباب الأفريقى .

صحيح أن الحركة لم تتمكن من تحقيق مشروعات النشر التى رسمتها لنفسها . ولكنها تمكنت فقط من نشر كراسة للشعر الزنجى باللغة البرتغالية . هذه الصفحات القليلة المختارة من شعراء ساوتومى ، وأنجولا ، وموزامبيق ، استطاعت أن تكشف للمرة الأولى عن تنوع الإبداع الأدبى فى هذه البلاد ، وأن تنبه عن وعى جديد للمثقفين . وبدأت شعوب هذه البلاد – وهى جزء من أفريقيا – التى تنتفض للمطالبة بحقها ، أن تتعرف على نفسها فى شعرائها .

وفى عام ١٩٤٨ شارك نتو فى صيحة جماعة من المثقفين تنادى : « هيا بنا إلى اكتشاف أنجولا من جديد » .

وبعد عودته من البرتغال – عقب تخرجه طبيبًا – بدأ نشاطه فى استئناف الحركة من جديد . وكان يرى فى هذه المرة . أن على الحركة أن تتفتح أبوابها على الشوارع ، وأن توحد بين نفسها وبين نوازع الشعب وأمنياته فى لحظته الراهنة ، وفى مواقع كفاحه .

وظهرت جماعات أدبية مثل « حركة الشعراء الجدد فى أنجولا » . وتأسست مجلات مثل « الرسالة » ووضعت خطط لمحو الأمية بين الجماهير .

ولكن . .

ولكن محاكم التفتيش ، والإرهاب السافر ، دفع بالكتاب والشعراء إلى خنادقهم ، ليعملوا فى السر ، تحت الأرض ، فى صراع مرير غير متكافئ .

فليكن . .

لقد ولد الأدب الأنجولى الحديث ! .

أدب يقول :

« إن القصيدة التى تذيع وتنتشر فى الشوارع ، فى أنجولا ، وفى موزامبيق ، هى القصيدة التى تقترن بإيقاعات شعبية ، وتتسم بالخصائص القومية .

لقد مضى الشعب للحرب .

ولكن نتو من زنزانة سجنه البعيد يبعث برسالة الأمل المحب :

سوف نذهب ، نعم ، يا حبى . .
سوف نذهب ،
عند عودتى
وقد تحطمت الأصفاد
سوف نطلق الحياة
لاراد لها
من إسارها ،
فى وحدة وثيقة ،
فى أغاريد الطيور المبهورة
إن خطا الرجال العائدين
فى ترانيم الأمطار
على الأراضى المولودة من جديد
خطًا واثقة . .
يخطوها رجال قد انعقد منهم العزم
يا حبى . .

وهكذا تتحول القصيدة ، من الصيحة إلى الأغنية . ومن الأغنية إلى النداء . والشاعر يصقل عدته الشعرية ، ويرهف سنان سلاحه بالقصيدة ، يعترض ويرفض ، ويحتج ، ويقاوم ، ويضم إلى تراث بلده الثقافى عناصر تأكيد لذات القومية .

يقول نتو إن الشعر اجتاز ثلاث مراحل :

مرحلة « الزنوجة » بوصفها رفضا للاندماج .

ثم مرحلة نداء « التآخى فى المعركة »

ثم مرحلة التستر القبلى الذى كان يدفن فى الماضى الإبداع الجماعى للشعوب الأفريقية .

كان نتو ورفاقه يؤمنون بأن الشاعر والأديب ، لا يمكن أن يفصل نفسه عن حياة الناس . وعن نضالهم . وعن آمالهم فى تحقيق الحرية والعدالة الإنسانية .

وكانت مهمة الأديب والشاعر – فى نظر نتو – أن يحيل الرغبة إلى قوة فعالة . وذلك عن طريق الكشف والتوعية . وأن يحيل الساكن إلى متحرك ، والمهزوم إلى مناضل . والعبد إلى سيد . والمحروم إلى مطالب بحقه ولو بالقوة .

فى قصيدته « الأم » ، يقول :

أماه . علمتنى ،
ككل أم سوداء يرحل ابنها ،
كيف أنتظر ، وآمل . .
كما تعلمت أنت فى أيامك المريرة
لكل الحياة . .
قتلت ذلك الأمل الصوف فى صدرى
فلست أنا الذى يَنْتَظِرْ . .
بل أنا . . الذى يُنْتَظَرْ . .
ونحن الأمل . .
نحن أطفالك . .

تسير نحو عقيدة تستطيع أن تغذى
الحياة عند أبنائك الباحثين عن الحياة .

الشاعر يجعلنا نحس بما يشتعل فى أعماقه من مشاعر التحرر والأمل . إنه ينظر إلى آفاق المستقبل لشعبه ووطنه بعين الواثق .

ولكنه لا يكتفى بمجرد الأمل فى المستقبل فحسب ، بل إنه يعبر عن صرخة المتمردين التى توشك أن تتحول إلى ثورة ، ففى قصيدة بعنوان « نار وإيقاع » يقول الدكتور نتو :

إيقاع فى النور
إيقاع فى اللون
إيقاع فى الموسيقى
إيقاع فى الحركة
إيقاع على تشقق الأقدام الدامية
إيقاع الأظافر المقتلعة
لكن إيقاع . .
إيقاع . .
يا أصوات أفريقيا الأليمة

الشاعر هنا يتنبأ . . يسبق الحلم الذى لن يتحقق إلا بالثورة . بالثورة المسلحة . إنه هنا بنبوءته يرى فى شقاء اليوم خميرة الغد . وهو دائمًا لا ينسى أنه أفريقى يتحدث بلسان الأفريقى .

* * *

آخر مرة التقيت به، كان فى القاهرة مع مطلع يناير ١٩٧١ ، وكان كعادته

وديعًا ، رقيقًا ، تحس إنسانية الطبيب على وجهه الهادئ الذى لا يبدو عليه سمة الثائر الملتهب أو القائد الذى يخطط لحرب عصابات تهز الأرض تحت أقدام جيش البرتغال الاستعمارى .

إن تاريخ الشعوب يتضمن أفعال الناس . ومايبذلونه من جهود . وكثيرًا ما يكتب ذلك بالكلمة . والمدفع ، وبالمفرقعات . وبالصواريخ . كما يحدث فى أنجولا تحت قيادة الشاعر الرقيق ، الطبيب الوديع ، المقاتل الثائر ، أو جستينو نتو ، الذى قدره الكتّاب الأفريقيون الآسيويون شاعرًا ومقاتلا ، فكرموه ومنحوه جائزة « لوتس » للأدب عام ١٩٧٠ .

لنتذكر نتو ..
ولنتذكر أن ما أخذ بالقوة .. لا يسترد إلا بالقوة .

□ فى الحادى والعشرين من شهر نوفبر عام ١٩٧٥ أعلن تحرير واستقلال أنجولا بعد سنوات مضنية من الكفاح المسلح . واختار شعب انجولا قائد حركة تحريره وكفاحه الدكتور اوجستينو نتو ليكون أول رئيس لجمهورية انجولا المستقلة . وفى صيف عام ١٩٧٩ استضاف نتو المؤتمر السادس للكتاب الأفريقيين الأسيويين – الذين أهدوه جائزة « لوتس » – لينعقد فى العاصمة « لواندا » . بعدها أصيب بمرض . وعقب عملية جراحية بموسكو مات يوم ١١ سبتمبر ١٩٨٠ ليبقى إسم نتو رمزًا دائما لاشتعال جذوة المقاومة والنضال فى قلب الشعب حتى تحرر الوطن .



عابد الأسلاف..

إن مشكلة أمتنا الجديدة – كما رأيتها مستلقية على ذلك الفراش – كانت تكمن فى أننا جميعًا . لم نمكث فى داخل بيوتنا مدة تكفى لجعلنا نضرب بعرض الحائط كل شيء . لقد كنا حتى الأمس ، نقف تحت المطر فى العراء ! وبعد ذلك .. تدافع حفنة منا – أمهرنا وأكثرنا حظًّا ولكنهم أبعد من أن يكونوا أفضلنا – تدافعوا إلى المأوى الوحيد . الذى تركه لنا حكامنا السابقون ...

« من رواية : رجل من الشعب »

بالرغم من أنه فى الثالثة والأربعين (عام ١٩٧٣) . وبالرغم من الشهرة العريضة التى اكتسبها على نطاق عالمى ، فإنه لم يكتب سوى أربع روايات فقط



● شنوا اتشبی ●

هى : « الأشياء تتداعى » وصدرت عام ١٩٥٨ ، و « لم يعد ثمة راحة » صدرت عام ١٩٦٠ ، و « سهم الرب » وصدرت عام ١٩٦٤ . وأخيرًا « رجل من الشعب » وصدرت عام ١٩٦٦ . ومع اقتصاره على الروايات الأربع ، فإنه يعتبر صاحب مدرسة تنسب إلى اسمه فى فن الرواية والقصة فى أفريقيا . بل إن إحدى رواياته الأربع التى كتبها خلال ستة أعوام ، أصبحت الآن نصًا مقررًا فى مناهج الأدب الإنجليزى بالمعاهد الدراسية فى غرب افريقيا .

هذا هو « شنواأتشيبى » الكاتب الذى ينظر إليه الناس كمسجل للتاريخ الأفريقى ، وبالإضافة إلى كونه رائدًا للرواية فى أفريقيا.

اتشيبى ، اهتم — فى كتاباته — بتسجيل تاريخ جديد لمواجهة افريقيا مع أوروبا. واهتم بإعادة تفسير التاريخ الأفريقى ناظرًا إليه بعينين أفريقيتين .

وفى مطلع عام ١٩٧٣ . وفى حديث صحفى . ألقى « أتشيبى » الأضواء على اهتماماته بقوله :

« كان هناك من يعتقد أننا فى أفريقيا ، قوم بلا ماض وبلا تاريخ . وما فعلته فى الأعوام الأخيرة ، وما افعله الآن ، هو أن أقول لهؤلاء بطريقة مؤدبة مهذبة نحن الأفريقيين لنا الماضى والتاريخ . فإليكم ماضينا وتاريخنا وأعتقد أن كل كاتب فى أفريقيا ملتزم بنفس هذا الموقف » .

ولد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ فى « أوجيدى » قرب « أوينتشا » شرق الإقليم الأوسط فى نيجيريا وينحدر اتشيبى من قبائل « الايبو » وهو ابن مدرس كان يعمل فى مدرسة قروية ، تابعة لجمعية إرسالية الكنيسة. بدأ اتشيبى تعليمه فى هذه المدرسة . ثم انتقل للمدرسة الثانوية الحكومية فى « أوموهيا » ، فى عام ١٩٥٣ كان من أوائل دفعة الحاصلين على درجة البكالوريوس من جامعة ايبدان. فى سنة

١٩٥٤ بدأ عمله الإذاعى كمخرج لبرامج الأحاديث فى مؤسسة إذاعة نيجيريا . فى سنة ١٩٥٦ التحق بمعهد تدريب الإذاعيين بإذاعة لندن . فى سنة ١٩٦١ تعين مديرًا للإذاعة الخارجية فى نيجيريا المعروف باسم « صوت نيجيريا » . بين عامى ١٩٦٠ - ١٩٦٢ زار شرقى أفريقيا على حساب منحة من مؤسسة روكفلر . فى عام ١٩٦٣ حصل من اليونسكو على منحة زمالة للفنانين الخلاقين وبموجبها سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وإلى البرازيل . وإلى بريطانيا .

فى عام ١٩٦٦ ، بعد احتفالات « الايبو » فى شمالى نيجيريا ، استقال اتشيبى من عمله الإذاعى ، وانتقل إلى شرقى نيجيريا . وفى عام ١٩٦٧ ، بالاشتراك مع صديقه الشاعر « كريستوفر أوكيجبو » أنشأ دارًا للنشر فى « إينوجو » . هدف الدار ، طبع ونشر كتب أدبية لتلاميذ المدارس ، تتضمن أدبًا يقوم على أساس الفكر المحلى فى نيجيريا . ونشبت الحرب الأهلية فى نيجيريا ، والتحق « أوكيجبو » بجيش « بيافرا » وعندما حلت نهاية العام كان قد استشهد فى المعارك . وضاق اتشيبى بالاستمرار فى العمل بعد مصرع صديقه وشريكه ، فألقى بنفسه وسط رفاقه الإيبو فى بيافرا يشاركهم . وخلال الحرب دمر بيته تمامًا .

وفى نهاية عام ١٩٦٩ قام اتشيبى بجولة فى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية ، برفقة زميليه الكاتبين « جبرييل أوكارا » و « سيبريان اكوينزى » . كان الثلاثة — فى أثناء جولتهم — يحاضرون فى الكليات والجامعات الأمريكية . وبعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة ، تعين اتشيبى باحثًا فى معهد الدراسات الأفريقية بجامعة نيجيريا فى مدينة « نسوكا » بشرق الإقليم الأوسط فى نيجيريا ، والآن ، يقوم اتشيبى — بالإضافة لعمله الجامعى — بعمل رئيس تحرير المجلة التى تصدرها الجامعة باسم « نسوكاسكوب » . وبعمل رئيس تحرير المجلة الثقافية « أوكيكى » التى تصدر عن دار النشر « نواميف » . كما يعمل مستشارا أدبيًا لسلسلة « الكتّاب الأفريقيون » التى

تصدرها مؤسسة دار « هاينمان » للنشر .

وفى أغسطس ١٩٧٢ منح اتشيبى درجة الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة « دارموث » الأمريكية تقديرًا لدوره الفريد فى الأدب العالمى .

فى عام ١٩٥٨ صدرت أول أعمال شنو اتشيبى . رواية « الأشياء تتداعى » . هذه الرواية ترجمت إلى ثلاثة عشرة لغة من لغات العالم . وقد عالج فى هذه الرواية النتائج الإنسانية لاصطدام الثقافات الأفريقية والأوروبية . وهذا الاصطدام ، خط شغل كتاب نيجيريا ، كما شغل كتاب أفريقيا ، لسنوات طويلة .

فى هذه الرواية ، يبدو اتشيبى كاتبًا يشده الحنين والارتباط بالأمكنة . ويقدم للقارئ الروح الشخصية عند قبائل « الايبو » . وهو يتفوق بامتياز حين يصور لنا الشخصيات ، وحين يصور لنا مجتمع الإيبو القديم . وحين يضفى صورة درامية ممتعة على الشعائر العقائدية . وعلى حياة مجتمع الإيبو من الداخل . وكيف يناضل الزعيم فى هذا المجتمع التقليدى القديم ضد الأفكار الجديدة ، والأفكار الجديدة تدمغ وتدين الاستعمار والرجل الأبيض .

إنه يكتب هذا ، فى تمكن واثق من اللغة الإنجليزية وبمهارة عجيبة فى اختيار الكلمات التى تترجم أفكاره وبحس مرهف يكشف لك ما فى أعماق كل شخصية من شخصيات روايته .

الصدام بين الثقافات الأفريقية والأوروبية ، الذى شغل كل كتّاب افريقيا ، والذى عالجه اتشيبى ببراعة فائقة فى « الأشياء تتداعى » . هذا الصدام يشغل تفكير أتشيبى منذ زمن بعيد ، ولأتشيبى موقفه تجاهه .

إنه يقول :

بالنسبة لى شخصيًّا . كان هدفى فى كل ما أكتب أن أقول للقارئ – اينما وجد – إن أفريقيا قبل مجىء الرجل الأوروبى . لم تكن فى فراغ . وإن مايقال عن

انعدام الثقافة فى أفريقيا تزييف وتزوير للحقيقة . إن الثقافة الأفريقية موجودة من قبل مجىء الرجل الأبيض . الذى حاول تضليل الأفريقيين . وحاول أن يزعم أنه قد جاء لهم بثقافة .

ثم يضيف اتشيبى قائلا :

من الغريب حقًّا ، ان يتبجح الرجل الأبيض . ويقول هذا بلد بلا ماض وبلا تاريخ .! بل إن بعض البيض الذين جاءوا إلى أفريقيا وصل بهم التبجح إلى حد القول : أيها الأفريقيون . أنتم بلا تاريخ . أنتم بلا ثقافة . أنتم بلا حضارة . أنتم بلا ديانة . ومن حسن حظكم أننا هنا الآن . لنعطيكم كل شىء !.

هذا هو المنطق الذى تفتحت عليه عينا اتشيبى . وهو – بالطبع – منطق غير معقول وغير مقبول .

إن الأفريقيين – كما يقول اتشيبى – لم يهبطوا من السماء فجأة . إنهم فى أفريقيا منذ آلاف السنين . ولهم – بالقطع – تاريخهم ، وتقاليدهم ، وحضارتهم ، وثقافتهم . ولا يمكن لثقافة ما أن تقول لثقافة أخرى . أنا الطريق ، أنا الحقيقة ، أنا الحياة . ولا شىء فى الوجود سواى !.

ومع ذلك

فإن الأوروبيين قالوا لأهل أفريقيا هذه العبارات . وما قالوه كان شيئًا غاية فى الغباء . وضيق الأفق والتعصب . وكانت مهمة اتشيبى أن يكشف للدنيا هذا الغباء ، وهذا التزييف ، لهذا كتب رواياته الأربع .

واتشيبى فى رواياته ، يمثل نوعًا من الحساسية مختلفًا كل الاختلاف عن غيره من كتاب أفريقيا ، فكتاباته تعكس قوة هادئة ، وتواضعًا اصيلا ، وهو يحرك فى رواياته سواكن ماضٍ يتحتم على الجيل الأفريقى المعاصر أن يتعرف عليه أفضل ما يكون التعرف . إنه يصف نفسه دائمًا بعبارة « عابد الاسلاف » . وهو محق فى

هذا الوصف . لأن له فى واقع الأمر صلة خاصة بالماضى . ويرى أن مهمته – ككاتب – أن يبعث تاريخ أفريقيا أمام الأفريقيين المعاصرين . وأمام البيض الذين زيفوا الحقيقة .

وكل رواية من روايات اتشيبي الأربعة نقف باعتبارها عملا قائمًا بذاته من الأعمال الأدبية . ومع ذلك فإننا إذا تناولناها معًا . وجدناها تشكل رباعية متسقة تدعم أجزاؤها المستقلة . وتضيء بعضها بعضًا . إنها موحدة . ومع ذلك ، فهى متنوعة . متوافقة جماعيًا ولكنها منفردة فرديًا .

وكان تأثير كل رواية من روايات اتشيبي على الكتّاب الشبان فى أفريقيا بصفة عامة ، وفى نيجيريا بصفة خاصة ، قويًا وعميقًا . بل إن القراء الشبان من « الإيبو » من الذين نشئوا فى قرى ومدن شبيهة بتلك التى وصفها اتشيبى فى رواياته ، قد وجدوا عالمهم الخاص وقد انعكس بكل الصدق فى روايات اتشيبى .

بل إن بعضًا من الروائيين النيجيريين الأكبر سنًا والأرسخ مكانة فى عالم الأدب والكتابة ، كشفوا بصراحة عما استفادوه من قراءة أعمال أتشيبى . لقد تعلم الكتّاب الكبار والشبان من أتشيبى كيف يكتبون قصصًا أفريقية .

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة . فقبل اندلاع الحرب الأهلية فى نيجيريا ، وبعد صدور روايته الثالثة « سهم الرب » أخذ اتجاهه فى الكتابة يتغير . لقد قرر أن يتحول عن الماضى . وأن يعنى بالقضايا المعاصرة لبلده . فكتب « رجل من الشعب » .

وهو يفسر هذا التحول بقوله :

من الواضح لدى ، أن الكاتب الأفريقى الخلاق ، الذى يحاول تجنب القضايا الاجتماعية والسياسية الكبيرة فى أفريقيا المعاصرة ، سينتهى به الأمر إلى أن تكون كتاباته أشبه بدخان فى الهواء .

فى رأيه أن مهمة الكاتب ليست مجرد تسجيل وتصوير للأحداث . إن مهمة الكاتب الحقيقية هى رؤية المستقبل والتمهيد لهذا المستقبل .

يقول :

« لقد انتهى الوقت الذى نقول فيه إن بلدنا كان كذا . وإن شعبنا كان كذا . إن مهمتى الآن أن أرسم الغد لبلدى . وأن اتصور مجتمع الغد فى بلدى . وماذا علينا أن نفعل غدًا . وماذا نأخذ من قيم الأمس لينفعنا غدًا » .

* * *

إن أتشيبي – بإيجاز شديد – يرى أن الكاتب هو ضمير شعبه . والمعبر عن احزانه وآلامه . والمعبر عن أفراحه وآماله ، إن الكاتب لا يمكن أن ينفصل عن شعبه .

لهذا ..

فإنه عندما تحركت الأحداث السياسية والاجتماعية فى نيجيريا ، تحول بكتاباته إليها .

لقد تحررت نيجيريا وزال الاستعمار من فوق الأرض النيجيرية . وتغير لون الحكام من الأبيض إلى الأسود .

ولكن ..

طبيعة الحكم لم تتغير !.

بل إن الحكم – كثيرًا – ما كان يصاب بحالة تدهور !..

وهو يصف الأحوال بقوله :

« إن المسئولية . والسلطة . وضغط الأحداث . وجو سوق السياسة ، يبدو أن كل هذا يفسد الرجال ، يفسدهم تحت شعار « الغاية تبرر الوسيلة » .. ولكنهم فى النهاية يكتشفون أن الغاية قد قضت عليهم إلى الأبد » .

إن أتشيبى فى آخر رواياته « رجل من الشعب » قد تنبأ بالانقلاب العسكرى الذى وقع فى نيجيريا بعد صدور الرواية . لقد رسم فيها صورة لا تنسى للزعيم « مانجا » عضو البرلمان . صورة للسياسى الفاسد الذى تراه فى كل مكان من أفريقيا التى استقلت أخيرًا .

الناقد الهندى الكبير الدكتور « راينجار » يصف هذه الرواية بكلمات تقول :

« إن رواية اتشيبي تعتبر مرجعًا صادقًا للسياسة الأفريقية لعصر ما بعد الاستقلال . صور فيها الدناءة ، والخداع ، واللصوصية ، والانتهازية ، وكل الاستسلام الردىء لدواعي الفساد . إن كل هذه الصور تحيط بالرواية فى شبكة فنيتها الرائعة بصورة غير مرئية » .

* * *

إن ما حدث فى أفريقيا على ايدى الأوروبيين البيض كشفه أتشيبى فى رواياته الثلاث الأولى ، التى صور فبها النظام القبلى القديم لدى « الأيبو » وهو يدخل الصراع ضد المسيحية . وضد الحكومة الأجنبية التى أقامها الإنجليز ، وصور الصراع بين الأفريقى والأوربى . وبين الوثنى والمسيحى . والصراع بين البدائية والعصرية . وأعلن رأيه بصراحة فقال إن المسيحية التى دخلت جنبًا إلى جنب إلى أفريقيا مع الاستعمار ، لم تكن إلا محاولة لإضفاء صيغة إنسانية تخفى حقيقة أهداف الاستعمار البريطانى . وكثيرًا ما استطاعت الديانة الجديدة أن تمزق الوحدة القبلية .

بل إن الاستعمار نفسه ، وقد مزق وجه أفريقيا كلها . وفرض حكومات أجنبية تحكم على أسنة الرماح . هذه الحكومات قد قمعت بالقوة كل محاولات الأفريقيين فى تحقيق قوميتهم وكرامتهم الوطنية . وسخرت كل البشر السود لخدمة السادة البيض .

ثم ..

جاء التحرير ..

ولكن .. هل تغير الموقف كثيرًا ؟.

إن مخلفات الاستعمار بقيت . صحيح أن الاستعمار التقليدى قد رحل من الباب . ولكن ليعود استعمار جديد من النافذة . الاستعمار الجديد أشد خبثًا ودهاءً . صنع حكاما كالدمى يحركهم من وراء ستار . الحكام الجدد نموذج للفساد . ورثوا من المستعمرين أبشع صور البيروقراطية .

لهذا لم يكن غريبًا ... أن تنشب فى نيجيريا حرب أهلية أزهقت خلالها آلاف الأرواح فى صورة دموية بشعة ، وهذا ما تنبأ به أتشيبى فى آخر رواياته .

* * *

من الصعب جدًّا ، تلخيص أى من روايات اتشيبى ، ولكن إذا تأملنا « الأشياء تتداعى » ، وحاولنا تقديم ملخص موجز لها ، فإننا نلتقى ببطل القصة « أوكونكو » . محارب مشهور . ومزارع خبير . ارتفع من أصل متواضع لكى يصبح قائدًا ثريًّا ومحترمًا فى عيون عشيرته . كانت حياته كلها نضالا وصراعًا من أجل بلوغ المكانة . بل إن النضال والصراع وصل إلى حد ارتكاب جريمة قتل فى الوقت الذى كان على وشك تحقيق أمله فى الوصول إلى مركز هام . ازاء هذه الجريمة كان يتعين عليه أن يترك عشيرته ويعيش منفيًّا لسبع سنوات. وفى نهاية السنة السابعة ، يعود أوكونكو ، يعود ليجد أن الأشياء قد تغيرت فى قريته وموطنه . لقد أنشأ المبشرون البيض كنيسة . وحولوا عددًا من قومه إلى دين الكنيسة . وأقام الرجال البيض محكمة يفصل فيها حاكم المنطقة فى القضايا حسب قانون أجنبى لا يعرفه الناس . ويحاول أوكونكو أن يحث عشيرته على القيام بعمل ما ضد هؤلاء الأجانب ومؤسساتهم . وفى لحظة غضب يقتل واحدًا من رسل حاكم المنطقة . وعندما لايجد صدى لهذا عند عشيرته ، ينتحر .

أتشيبي يرسم شخصية أوكونكو بطريقة ممتازة . فمن اللحظة الأولى ، يسيطر البطل على الرواية ، ويؤثر على القارئ بقوته ورهبته .

«كان طويل القامة ضخمًا. اكسبه حاجباه الكثيفان وانفه العريض مظهرًا شديد الصرامة . كان يتنفس بصعوبة . ومما يقال . إنه عندما ينام تستطيع زوجاته واطفاله سماع تنفسه فى بيوتهم الخارجية . وعندما يمشى لا يكاد كعباه يلمسان الأرض . فيبدو كأنه يسير على زنبرك . أوكأنه يوشك أن ينقض على إنسان ما . وكثيرًا ما كان ينقض بالفعل على الناس . كان يعانى من تأتأة خفيفة . وكلما غضب واستعصى عليه النطق بالكلمات بسرعة كافية ، استخدم قبضة يده ! »

لماذا اختار اتشيبي هذا البطل لروايته ؟

هو يجيب عن السؤال بقوله :

«كنت أريد شخصية يمكن أن تسمى ممثلة لهذه الجماعة المعنية من الناس . وهم يعجبون بالرجل ذى القوة . رجل الشعب . يعجبون بالرجل القوى صاحب الثروة . الرجل الذى يملك رقعة كبيرة من الأرض . ويملك عدة مزارع . ويملك عدة زوجات ايضًا . ونقطة الضعف فى هذا المجتمع ، هى افتقاره إلى التكيف . وعدم قدرته على الانحناء . وأظن أنه فى عصر أوكونكو ، كان الرجال الاقوياء هم أولئك الذين يرفضون الانحناء . واظن أن هذه كانت غلطة فى ثقافتهم ذاتها .

يقصد أتشيبي ، أن اخطاء أوكونكو ، هى أخطاء مجتمعه . إن الأشياء تتداعى فى أرض الأيبو ، لأن مجتمع الأيبو – وأوكونكو رمز له – يفتقر إلى المرونة .

واتشيبي يؤكد ذلك بقوله :

« لم يكن تعاطفى ينصب كلية على أوكونكو .. لأن الحياة يجب أن تستمر . وإذا أنت رفضت التغيرات ، فإنك – مهما كان ذلك اليمًا – يجب أن تنحى جانبًا »

على لسان أحد شيوخ القبيلة من أصحاب البصيرة النافذة . يوضح أتشيبى أن المجتمع هو الذى اخطأ من البداية .. هذا الشيخ الحكيم يقول :

« إن الرجل الأبيض غاية فى المهارة . جاء فى هدوء وسلام بدينه الجديد. ضحكنا لحماقته . وسمحنا له بالبقاء . فاستمال إخوتنا إليه الآن . ولم تعد العشيرة قادرة على العمل كرجل واحد كما كان يحدث فيما مضى . لقد وضع الرجل الأبيض سكينًا على الأشياء التى تربطنا معًا .. فتداعينا ! »

* * *

لقد توقف أتشيبى الآن عن كتابة الرواية التى كان أستاذا لفنها . إنه الآن يكتب مقالات . ويكتب قصائد وهو يفسر هذا الاتجاه بقوله :

« إن الظروف الحاضرة تفرض علىّ أن أقول ما أريد بإيجاز شديد . فى مقال . أو قصيدة . أو قصة قصيرة . ليس هذا هو وقت الرواية » .

صدرت مجموعتين من القصص القصيرة لأتشيبى فى عام ١٩٧٢ . مجموعة بعنوان « بيضة القربان » ، والثانية بعنوان « البنات فى الحرب » . المجموعتان تضمان القصص القصيرة التى كتبها أتشيبى ونشرت فى الصحف والمجلات .

كما صدرتُ له مجموعة شعرية بعنوان « حذار ياشقيق الروحى .. وقصائد أخرى » نشرت عام ١٩٧١ فى طبعة أفريقية . ثم أعيد نشرها عام ١٩٧٢ فى طبعة عن لندن .

وأشهر المقالات التى كتبها : « دور الكاتب فى أمة جديدة » . و « الكاتب الأفريقى والقصة الإنجليزية » . و « الروائى كمعلم » . و « عبء الكاتب الأسود » . و « الكاتب الأفريقى وقضية بيافرا »

وعن أتشيبى وكتاباته صدر مؤلفان ، أحدهما بعنوان « روايات شنوا أتشيبى » صدر فى لندن عام ١٩٦٩ والثانى « شنوا أتشيبى » وصدر فى لندن عام ١٩٦٩

أيضًا . كلاهما دراسات وصفية أكثر منها نقدية لأعمال أتشيبى تهدف إلى شرح وتفسير يفيد الدارسين بالجامعات .

* * *

هذا هو شنوا أتشيبي . بعد أن انتهى من إعادة تفسير التاريخ الأفريق بعينين أفريقيتين كرس قلمه للتخلص من آثار الاستعمار فى بلده . وللتمهيد لميلاد قيم سياسية واجتماعية جديدة ، لا فى نيجيريا وحدها ، بل فى أفريقيا كلها .

□ تقديرا لما قدمه شينوا أتشيبى من أعمال إبداعية تؤكد أنه -ككاتب- يعتبر نفسه ضميرا للشعوب الافريقية بصفة عامة .. ومعبرًا عن آلام وآمال الشعب النيجيرى بصفة خاصة .. فقد قرر المكتب الدائم للكتاب الأفريقيين الأسيويين إهداءه جائزة لوتس للأدب الأفريقى الأسيوى لعام ١٩٧٥ .



أين يموت الثعبان؟!

□ أرض شعب ضاحك .. شعب كريم .. ، هذا .. ما تذكره إعلانات السياحة .. ولكن ..
ولكن الإعلانات نسيت أن تضيف :

« إن الجنس رخيص هنا.. ! »
« وأن الخمر لا يأبه به أحد.. ! »

□ وان الشعب يقاسى من الاف الأمراض ... و .. والشحاذون فى كل مكان ... حتى على ممرات هبوط الطائرات !.

□ إن الحكومة – أية حكومة – يضعف رجالها تمامًا .. أمام الضغوط المالية ! !

« من رواية هذه الأرض يا أخى »



● كوفي أوونر ●

فى عام ١٩٧٢ ، صدرت روايته الأولى « هذه الأرض ياأخى »
وبالرغم من أن الكاتب أفريقى من غانا . فقد طبعت روايته فى أمريكا .. وأثار
صدورها ضجة كبيرة . وسلسلة لا تنتهى من المناقشات والجدل ، حول الرواية
وحول المؤلف الذى كتبها بفكاهة مرة وسخرية لاذعة . والفكاهة والسخرية – فى
الأساس – حكايات حزينة ، مليئة بالدموع والآلام .

ولكن ..

لماذا أثارت هذه الرواية ضجة ، وجدلا ! ولماذا ثارت هذه المناقشات حول
مؤلفها « كوفى أوونر » الذى كان يسمى فيما مضى « جورج أوونر وليامز » ! !

السبب ..

أن الرواية شىء جديد ..

كتبت بتكنيك جديد .. جديد ..

الرواية مكتوبة على مستويين .. مستوى واقعى ومستوى خيالى حافل بالرمز ..

إن كل فصل فى الرواية له ملحق به يحمل نفس الرقم .

مثلا الفصل ١ ويليه ١ (أ) ثم فصل ٢ ويليه ٢ (أ) .. وهكذا .

الفصول الأصلية تعالج حياة كل يوم . حياة أفريقيا بما ورثته من مساوئ
الاستعمار وفساده . ثم الفصول الملحقة بأسلوب شاعر .. يرجع بنا إلى الماضى .
ليناقش الحب والدين والذكريات والطفولة .

الغريب .. أن « أوونر » استغرق ثمانية أعوام من عمره ، ليكتب أول أعماله
الروائية .. التى أثارت هذه الضجة .

تعالوا نتعرف عليه أولا .

* * *

ولد أوونر فى ١٣ مارس عام ١٩٣٦ فى « وهيتا » بحى « أونولو الجنوبى » بإقليم

« فولتا » قرب « كيتا » بجمهورية غانا الأفريقية . أبوه من « توجو » ، وأمه من « سيراليون » .

بدأ تعليمه فى « كيتا » التى يصفها بقوله :

« مدينة الفيضان ، ببحرها الذى تدوى أمواجه فى أذنى » .

تلقى تعليمه فى مدرسة للمبشرين . ثم انتقل إلى كلية « اتشيمونا » فى العاصمة « أكرا » . ثم فى جامعة غانا . ثم فى جامعة لندن ، حيث حصل على درجة الماجستير فى الأدب الإنجليزى الحديث . وسافر إلى أمريكا ليحصل على درجة الدكتوراه فى الأدب المقارن من كلية « ستونى بروك » بجامعة نيويورك .

شغل وظائف محاضر فى القسم الإنجليزى بجامعة غانا خلال الفترة ١٩٦٠ – ١٩٦٣ . ثم عمل معيدًا ومحاضرًا متخصصًا فى الشعر بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة غانا ١٩٦٣ – ١٩٦٥ ، ثم شغل منصب المدير العام لمؤسسة صناعة السينما فى غانا ١٩٦٥ – ١٩٦٧ . ثم حصل على منحة « لونجمان » للدراسة العليا بجامعة لندن . ومن هناك حصل على درجة الماجستير عام ١٩٦٨ . فى نفس العام أصبح مساعدًا بالقسم الإنجليزى بجامعة نيويورك ، كلية « ستونى بروك » وأعد لدرجة الدكتوراه التى حصل عليها عام ١٩٧٠ . ثم عين رئيسًا لبرنامج الأدب المقارن بنفس الكلية ١٩٧٠ – ١٩٧٢ . وبعدها عين أستاذًا مساعدًا زائرًا لمدة عام بالقسم الإنجليزى بجامعة « أوستن » بولاية تكساس الأمريكية .

فى شهر أكتوبر ١٩٦٨ اتخذ لنفسه الاسم الرسمى الأفريقى « كوفى أوونر » بدلا من اسمه المسيحى « جورج أوونر وليامز » .

وعن هذا التغيير قال :

« إن أبغض الأشياء إلى المرء . المتكلفون والمنافقون . وكنت أحس فى اسمى السابق التكلف والنفاق للمستعمرين ! ! » .

استطاع كوفى أوونر أن يحقق لنفسه سمعة طيبة فى دنيا الأدب ، بصدور أول ديوان شعر يحمل اسمه . وتبدو فى قصائد هذا الديوان – بكل وضوح – تأثره الشديد بمسرح الطبيعة التى أحاطت بطفولته . ومواسم الفيضان فى مدينة البحيرات . صيادو السمك وطيور النورس . كل هذه الصور ، تمتزج وتختلط بآلهة أسلافه وأجداده . فيقوده هذا إلى « إعادة الاكتشاف » . ومن هذا يتخذ عنوانًا لكتابه الأول الذى نشره فى نادى « مبارى » الأدبى فى « ايبدان » بنيجيريا عام ١٩٦٤ .

فى قصيدة « إعادة اكتشاف » التى جعل منها عنوانًا لديوانه يقول :

عندما تجف دموعنا على الشاطئ ..
ويحمل الصيادون شباكهم عائدين إلى البيت .
وتعود النوارس إلى جزيرة الطيور
وتخفت ضحكات الأطفال بالليل وتسكت
سوف يبقى ذلك التشارك الذى صنعناه سويا
وحفل التوحد الذى شاركنا فى شعائره
ويساق خارجًا من يتأخر من المعزين
ولسوف يبقى حارس الباب الأبدى
لا يمكن أن الموسيقى التى سمعناها فى تلك الليلة
هى التى مازالت تتردد فى الذاكرة
إنها الجوقة الجديدة لرفاقنا المنسيين
وترانيم البهجة التى تنشدها ذواتنا الثانية

لحظات يختارها الشاعر – فى قصيدته – من قالب أعاد اكتشافه . ويسجل

لحظات قمة التبلور – سواء كانت عالية أو هابطة – لأنها اللحظات التى يكتشف فيها القوة الكامنة فى أعماق ذاته .

بقية قصائد هذا الديوان تدور حول تقاليد وعادات قومه وعشيرته ، ووسط الطبيعة الخاصة التى تميز مسقط رأسه ، الشاطئ والبحر ، والفيضان ، وشباك الصيادين ، وطيور النورس .

عن هذا الديوان يقول أوونر اليوم :

«كلما ألقيت نظرة على هذا الديوان .. أحس بخجل شديد ..! أحس أن قصائدى ناقصة . لم تكتمل .. لماذا ؟ لست أدرى .. شكرًا لله أن هذا الكتاب اختفى تمامًا من المكتبات . ربما أحرقوه . ربما القوا به فى المهملات ! لا أعتقد أن أحدًا غيرى يملك نسخة منه ، أما النسخة الوحيدة التى أملكها ، فإننى أرفض أن أعيرها لصديق يطلبها . ساحتفظ بها حتى يجئ اليوم الذى أكتب فيه سيرة حياتى . يومها سوف اتحدث عن الشعر السخيف الذى كتبته فى مرحلة من عمرى » .

فى حوار له مع جمع من الأساتذة والطلاب فى جامعة أوستن بامريكا فى مطلع هذا العام .. سأله أحد الطلبة عن حقيقة شعوره تجاه هذا الكتاب « إعادة اكتشاف » ..

فأجاب قائلا :

« برغم كل شئ .. شعورى هو شعور الأب والأم تجاه واحد من الأولاد . لا يستطيع الأب أن يكون ضد أحد أولاده ، ولكن .. من الممكن أن يكون لك من بين أولادك طفل ردئ أو سيئ الطباع ، ومع ذلك فهو إلى الأبد ولدك . من لحمك ودمك . ولا يمكنك – بالطبع – أن تقتله ذات ليلة فى الخفاء ، لمجرد أنه ردئ ، أو سيئ الطباع ! » .

برغم ما يقوله عن رأيه الشخصى ، فى ديوانه الأول ، فإنه حقق نجاحًا كبيرًا .

وبعد سبع سنوات دعم هذا النجاح بديوانه الثانى « ليلة دمى » يضم قصائد نشرت له فى مجموعات « قصائد معاصرة من أفريقيا » ، و « كتابات أفريقية معاصرة » ، و « شعراء الكومنولث المعاصرون » و « شعراء شبان من « الكومنولث » ، وقصائد نشرت فى مجلات « ترانزشن » ، و « الكارينجا » ، و « فنون أفريقية » ، و « أوكيامى » ، و « أورفيوس الأسود » ، و « جرينافيلد ريفيو » .

الديوان طبع فى نيويورك وصدر عام ١٩٧١ .

أحد النقاد يصف شعره بأنه محاولة من الشاعر ، لتأكيد عهد قطعه على نفسه جيل من الشباب الذى تعلم بعيدًا عن جو الحياة التى يعيشها آباؤهم . ولكن المحاولة تنم عن إدراك واع لضرورة الفصل بين شعر العامية الشفاهى ، وبين التخيلات والخرافات لإعطاء إضافة مؤثرة لإحساس الشباب بالضياع بين الماضى والحاضر.

فى عام ١٩٧٣ صدرت من نيويورك رواية « هذه الأرض ياأخى » .

أول رواية يكتبها أوونر.

هو شاعر..

شاعر أولا .. واخيرًا ..

حتى بعد أن كتب أولى رواياته .. يرى أنه كتبها كشاعر. وكل ما فى الأمر أنه أراد رقعة أوسع من أبيات القصيدة .. ليضع أفكاره الشعرية .

يقول « أوونر » :

« لا أعتقد أننى قد كتبت – بالضرورة – شيئًا من النثر... ولكننى أردت أن أكتب قصيدة نثرية طويلة . إن نفس الموضوع الذى عالجته فيما مضى بالقصيدة الشعرية ، حاولت معالجته بقصيدة طويلة من النثر.. هذه هى روايتى » .

الرواية تحكى قصة افريقيا المعاصرة . وهي نفس القصة التى كتبها الكاتب النيجيرى « شنوا أتشيبى » . ولكن فى رواية « أوونر » نلمح رؤية جديدة . رؤية تنبع من خيبة أمل المفكرين والمثقفين فى الاستقلال الأفريقى ، وفى القادة الأفريقيين . لقد تقدمت رؤية « أوونر » أكثر من عشرة أعوام على رؤية « أتشيبى » فى روايته « تداعى الأشياء » ، وهى رؤية عالجت المتناقضات بين التقاليد الأفريقية وجديد أوربا . وتحدثت عن الشباب الأفريقى الممزق بين الموروث « الأفريقى » والجديد الأوربى . ولكن رؤية « هذه الأرض ياأخى » أكثر تقدمًا من وجهة النظر السياسية والاجتماعية .

بدأ أوونر كتابة روايته الوحيدة عام ١٩٦٣ .

العجيب أنه قبل أن يشرع فى كتابتها .. كان قد انتهى من كتابة رواية اخرى بعنوان « أوراق الزمن » . ومازال لديه نصها الاصلى للآن . وهو يصف هذه الرواية بأنها تقليدية .. تقوم على السرد المباشر . وقد تأثر فى كتابتها بكل من « فوستر » و « كونراد » و « جريس » .

بعد أن انتهى منها .. قرأها من جديد . ولم يحس بأى سعادة . ووصل إلى قرار .. يقول :

«كوفى أوونر .. أنت شاعر .. ولا تصلح أبدًا لأن تكون روائيًّا » .

واعتبر « أوراق الزمن » رواية مرفوضة !

ومع ذلك .

بدأ يكتب « هذه الأرض ياأخى » . واستخدم فيها بعض اجزاء من الرواية المرفوضة ، وقد عانى كثيرًا فى كتابتها ، فقد كان يسجل احتجاجًا عنيفًا ضد الفساد . وضد السلوك الفاسد الذى طغى على كل البشر . وهو يتحدث عن

شخصيات روايته قائلا :

« صور إنسانية.. ولكنها بالنسبة لى شخصيات تلعب دورها بصورة غاية فى العنف والخشونة . لقد وضعت الشخصيات وسط بلدى غانا بظروفها . أو بمعنى أكثر اتساعًا .. وسط ظروف أفريقيا التى أعرفها جيدًا » .

إنه يقدم حياة افريقيا المستقلة بكل ما ورثته من الاستعمار من فساد . يقدم المحكمة وما يدور فيها . والفساد المتجسم فى حارس المزلقان الذى لا يسمح لأية سيارة بالمرور إلا إذا « دفع » سائقها ما يتيسر. ! ! ويعرض لنا حياة النادى حيث نلتقى بموظفى الدولة يشربون الخمر مع العشيقات . ونرى زوجاتهم يحضرن فجأة ، وتحدث خلافات ومشاجرات وفضائح .

الكاتب الروائى النيجيرى « شنوا اتشيبى » وصف الرواية بقوله :

« إنها قصة مجازية لأفريقيا » .

الرواية تحكى كيف يفقد الطريق المستقيم لبعض الأفريقيين . يقول بأسلوب شاعرى :

« وفوق جميع الآلام ، نجد أن المصيبة سائرة إلى النهاية . نهاية موجودة معنا طول الوقت . منذ البداية . وحتى النهاية . حيث الموت الذى يخبرنا بطل القصة أنه مختبئ دائمًا خلف الأبواب » .

بطل الرواية « أمامو » محام ناجح . درس فى إنجلترا . وسافر إلى أكثر من مكان فى العالم . والمؤلف يتتبع حياة أمامو منذ مولده . عبر حياته المتباينة الحافلة بأشياء كثيرة . إنه يضع أمامنا حياة البطل بطريقة واضحة . نراه طفلا صغيرًا يبدأ يتعلم الحياة ، يميز الأصوات والأفراد . يصفه أوونر : « إنه يلتقط الأصوات » .

ويصف أيام الطفولة والصبا على لسان البطل :

« أيام براقة براقة فى الحقول . يقتطف الزهور . ويمسك بفراشات فى لون قوس

قزح فى الحديقة الموحشة . يطارد الأشباح فى الحقل . و .. أمسكت واحدة ! كانت جالسة على زهرة عباد الشمس واسعة كالقمر المستدير . كل الألوان . ومن كل درجات كل لون . وأمسكتها .. وصرخ الجميع : « لقد أمسك فراشة . ! » كانت أولى صيدى . وولد الصياد فى صيد فراشة فى حقول عباد الشمس » .

ثم يضيف :

« ثم طارت .. لم تبق فى يدى حيث أمسكتها بحنان ورقة . وطارت .. وبحثت عنها اياما عديدة . بحثت عنها فى الحقل . ولم أرها أياما عديدة . رأيت غيرها فى شكلها . ولكن لا ، لم تكن فراشتى هناك . لقد ولت . لقد طارت . كانت الألوان مختلفة . وخطوطها مختلفة . وعيونها مختلفة . لقد ولت ، لقد طارت » .

وفى مقدمة الكتاب – التى كتبها شنوا أتشيبى – يعلق أتشيبى برأى يقول : « إن هذه الفراشة هى استقلال افريقيا ، الذى لم يستطع أن يحقق ما كان منتظرا منه » .

ويروى لنا أوونر قصصا عن حياة « أمامو » فى لندن . وكيف يسير فى شوارعها وهو يحلم باليوم الذى تتحرر فيه أفريقيا . وهو يحلم بالجلوس فوق أول دبابة تدخل « جوهانسبرج » ، بعد أن تنجح ثورة المناضلين فى جنوب أفريقيا وروديسيا . كان يحلم وهو يسير فى الشارع عالى الرأس . ثم يدخل أحد المطاعم مع صديق وهو منهمك فى حديث ، وحين يطرقع أصابعه وقد تذكر شيئا هاما نسيه ، يحسب الجرسون الإنجليزى أنه يناديه . فيقول الجرسون بعنف وغضب : « أنت لا تنادى كلبا » . ويقول « أمامو » لنفسه : « العفو .. الكلب هو أنا ، أنا الكلب الأفريقى !! »

تبدو فكاهة .. فكاهة قاسية مريرة ، ولكنها فى الأساس حكاية حزينة دامعة .

ويحكى لنا أوونر عن مناقشات بطله « أمامو » فى لندن مع بعض المثقفين . واحد منهم يقول :

« ما الذى تقدمه أفريقيا إلى العالم .؟ »

سؤال ضخم . ولكن المثقف يتابع السؤال قائلا :

« إذا لم يكن لديكم تاريخ فاخلقوه . وإذا لم تكن لديكم ثقافة فاخترعوها . إن السؤال ياأخى يدور على كل لسان . ويجب أن تعثر على الجواب بسرعة » .

ويحدث البطل نفسه وهو يفكر فى افريقيا . وماضيها . وحاضرها . ويقول :

« إن حزننا نفسه ، اساسه ذلك الحزن القديم الذى هو تاريخ هذه الأرض . الحزن الذى يتحدى كل عزاء . نحن جميعًا نسير ونحن نيام . بعضنا يسير اسرع قليلا من الآخرين » .

كلمات تقطر مرارة ..

مرارة الوطن الذى فقد الطريق من تحت اقدامه . والذى يدور دورة كاملة ليعود من جديد إلى تقاليده . يعود إلى ذلك الأمل الجديد . أمل حبيبته التى تخرج من البحر .

« ساعانق مرة أخرى ذلك الأمل الأوحد . أملك . وسترقصين مرة أخرى بنفس الخطوات على الأرض ، على أنغام الطبول القديمة . وعن طريقها تكشفين الأسطورة الخالدة . أسطورة حبك . وسأحبو على ركبتى إليك فى الرمال عند حافة الماء . وأسترجع أول كلمة نطقت بها » .

إن « أمامو » بطل رواية « هذه الأرض ياأخى » له من الملامح والأفكار ما يدفعك للإحساس العميق بأنه « أوونر » أو نسخة منه . إنه يحمل مشاكل افريقيا فى قلبه . ويعبر عنها بالشكل الأدائى الذى يجيده . يعبر بالكلمة . وأنت تلمح أن وراء الكلمة شاعر. يكتب بأسلوب شاعر. حتى ولو كان مايكتبه رواية .

* * *

خلال اعوام المعاناة فى كتابة الرواية ، كان « أوونر » قد انتقل إلى لندن ليستكمل دراسته ويحصل على الماجستير من جامعة لندن عام ١٩٦٨ ، وبعدها سافر إلى الولايات المتحدة ليعمل بالتدريس هناك ، وليحضر للحصول على الدكتوراه . موضوع رسالته يدور حول « العلاقة بين الأدب المكتوب ، والأدب الشفاهى » .

وسط كل هذا ، هو مستغرق منذ عام ١٩٦٠ فى كتابة مؤلف عن الأدب الأفريقى ولم يفرغ منه حتى الآن ، وفى هذه الأيام يضع اللمسات الأخيرة لديوان شعرى جديد . ومع ذلك يقول إن هذه اللمسات الأخيرة قد تستغرق منه بضع سنوات !.

بدأ اخيرًا فى كتابة رواية جديدة . رواية شعرية ذات آفاق أكثر اتساعًا من رواية « هذه الأرض يا أخى » تدور حول وحدة الأفريقيين فى أمريكا ، والأفريقيين فى أفريقيا ورؤيته لهذه الوحدة ، إنها وحدة بين البشر تجاه كل ما يهدد أحلام الإنسان فى الازدهار والتقدم .

« كوفى أوونر » الشاعر الذى يكتب رواياته بحس شاعر ، يترقب يومًا يعود فيه إلى وطنه غانا ، يعود من منفاه الاختيارى ، وعن ذلك يقول :

« عندما يحس الثعبان باقتراب موته وهو فوق شجرة ، فإنه يتزلق نحو الأرض .. ليموت فوق تراب الأرض ، وليس فوق الشجرة ، وأنا كالثعبان .. أريد أن أعود للأرض ، وسواء عندى أن تكون عودتى بفخر وانتصار ، أو أن تكون مجرد تسلل فى هدوء » .

هذا كاتب من طراز فريد ، يكتب بقوة وخشونة تقرب من العنف ، ووسط هذا العنف يروى الكثير من الفكاهات ، فكاهات قاسية ، هى فى الأساس حكايات حزينة مليئة بالآلام والدموع ، إنه يقدم روايته المثيرة بكلمات من دانتى ذات مغزى بعيد :

« فى وسط رحلة حياتنا ، وجدت نفسى داخل غابة مظلمة فقدت فيها الطريق المستقيم . آه .. كم هو صعب أن أتحدث عن هذه الغابة المتوحشة الخشنة الكثيفة . إن مجرد التفكير فيها يجدد مخاوف . إنه مر لدرجة أن الموت نفسه لا يزيد عنها مرارة » .

« أوونر » مفكر ومثقف أفريق . يحمل مشاكل بلده غانا ومشاكل قارته أفريقيا فى أعماق قلبه . وهو يعبر عن المشاكل ، ويحاول إيجاد حلول لها ، من خلال الشكل الإبداعى الذى يجيده ، وهو الشعر المنظوم، والشعر المنثور ، حتى ولو أطلق عليه الناس اسم « رواية » .



رسائل.. إلى مارتا..

قد نركب رءوسنا فى غير الحق .. ونكابر
أما رأس الشاعر..
فهى السندان ..
عليه يطرق مصير الشعب من جديد
ياأرواح الشجعان ..
الذين ماتوا فى سبيل المعرفة والحق والحرية
ياأرواح الأجداد العبيد ..
الذين عرفوا حرارة ثمن الحرية
هبينى القوة والشجاعة
واجعلى حياتى ..
الثمرة الجنية المبذولة فى سبيل الحرية

« من قصيدة لحن الشاعر »



● دنيس بروتس ●

بالكلمة ، بالقصيدة ، يعبر الشاعر بكل الصدق عن عقيدته . ويعبر عن مثله العليا التى عاش يؤمن بها ، سواء فوق أرض التعصب العنصرى البغيض أو فوق أرض الاضطهاد المهين بسبب اللون فى أمريكا ، حيث يعيش الآن فى المنفى

هذا هو الشاعر « دنيس بروتس » الذى يرى فى رأسه ، وفى رأس أى شاعر ، السندان الذى يطرق عليه مصير شعبه من جديد . والذى ينادى أرواح الشجعان ، وارواح أجداده ، لتمنحه القوة والشجاعة ، لكى يقدم حياته ثمنًا للحرية .

وعلى امتداد أعوام العمر الذى بدأ عام ١٩٢٤ نلتقى به إما فى السجن ، أو فى بيته وقد حددت إقامته ، أو فى المنفى . تسعة وأربعون عامًا (الآن ٥٩ عاما) حافلة بألوان الكفاح والنضال الذى أثمر فى تحقيق نجاح فى مجال الرياضة ، فعندما تقرأ عن حرمان جنوب أفريقيا ، واستبعاد روديسيا ، من المباريات الأولمبية الدولية ، تذكر دائمًا أن صاحب الفضل الأكبر فى هذا القرار هو الشاعر دنيس بروتس الذى استطاع – أكثر من أى فرد آخر – أن يحقق هذا النجاح بحكم رئاسته للجنة الأولمبية غير العنصرية بجنوب أفريقيا . وبحكم المعركة الطويلة التى قادها فى جنوب أفريقيا مترعمًا منظمة لمقاومة التعصب العنصرى فى مجال الرياضة . لقد خاض صراعًا مريرًا هدفه حرمان جنوب افريقيا وروديسيا من الاشتراك فى الدورات الأولمبية طالما استمر الحكم العنصرى الأبيض فى ممارسة التمييز العنصرى فى مجال الرياضة .

وإذا كان الشاعر بروتس قد حقق هذا النجاح ، فإنه دفع ثمن هذا النجاح غاليًا ، فقد حرم من كل حقوقه السياسية . وحرم من أى نشاط اجتماعى ، بل لقد حورب فى رزقه وحرم من ممارسة مهنة التعليم . وحرم من استكمال دراسته الجامعية للقانون ، وانتهى به الأمر إلى الاعتقال والسجن وتحديد الإقامة ثم النفى . وبرغم كل هذا ، لم يتوقف بروتس عن نشاطه ، وظل يقود نشاطًا سياسيًّا سريًّا ضد

الحكم العنصرى فى بلده حتى آخر لحظة قبل مغادرة الوطن إلى المنفى .

وبرغم كل هذا أيضًا ، لم يتوقف الشاعر عن كتابة قصائده ، ولم ينس للحظة واحدة أن رأسه هى السندان الذى يطرق عليه مصير شعبه من جديد .

ولد عام ١٩٢٤ فى « سالزبورى » بجنوب أفريقيا لأبوين أفريقيين . ثم انتقل إلى جوهانسبرج ليدخل كلية « فورت هير » ، ثم ليلتحق بجامعة « ويتوتر ستاند » ، حيث درس بكلية الآداب حتى تخرج . ولمدة ١٤ عامًا « حتى ١٩٦٢ » ، احترف تعليم اللغة الإنجليزية ، واللغة الأفريكانية ، بالمدارس الثانوية فى « بورت اليزابث » .

شارك فى كثير من المعارك التى ثارت ضد التفرقة العنصرية ، خاصة تلك التى تتعلق بالرياضة . سلطات جنوب أفريقيا اكتشفت نشاطه السرى ، وبدأ بروتس يواجه المتاعب . حرمت السلطات حضور بروتس أى اجتماعات سياسية أو اجتماعية . وأصدرت الحكومة قرارًا بتحريم نشر كتاباته فى جنوب أفريقيا .

ولكن بروتس ، مع بداية المتاعب ، بدأ يكتب ويقول :

« فى البداية ، كنت أكتب لأسجل أفكارى وخواطرى . أسجلها فى انطلاق لا يقيده شكل ما ، فتجىء كتابتى احيانًا كنوع من الشعر الحر . وأحيانا كنوع من الخواطر . وفى أكثر الأحيان كانت الكتابة تجىء كشىء عديم اللون والطعم والرائحة .! وأحسست أننى بحاجة إلى نوع من الانضباط . وأنه يجب علىّ أن أضع أفكارى فى قالب محكم . فى قالب من الشعر » .

ولم يمض وقت طويل ، حتى زادت متاعب بروتس . فقد فصلته السلطات من عمله . واضطر لأن يعمل جرسونًا فى نادى جامعة ويتوتر ستاند . وما لبث أن وجد نفسه عاطلا ، ليس هذا فقط ، بل لقد أصدرت السلطات أمرًا بتحديد إقامته .

والغريب أن بروتس وهو عاطل ، منح جائزة « مبارى » للشعر عن عام ١٩٦٢ . وكانت « مطبوعات مبارى » فى ايبدان بنيجيريا ، تطبع أول مجموعة شعرية له بعنوان « صفارات إنذار .. نُخدام .. أحذية » ، وصدرت المجموعة فى كتاب فى عام ١٩٦٣ عندما كان بروتس فى السجن .

* * *

لنعد إلى مرحلة تحديد الإقامة ..

فى هذه المرحلة ، كان الشاعر محدد الإقامة فى بيت بأحد أحياء « جوهانسبرج » . وكان هذا يشعره كأنه يحيا فى الجحيم . وكان كثير التفكير فى البحث عن وسيلة للخروج من هذا الجحيم ولو لفترة قصيرة . كانت زوجته تعيش بعيدًا عنه على مسافة ٧٠٠ ميل بحكم قرار تحديد الإقامة . وأحيانًا كان يتمكن من تهريب رسالة إليها . وبعدها بأيام تصله برقية تقول :

« طفلنا مريض جدًّا . احضر فورًا » .

والنتيجة ..

يعطى بروتس إذنًا بالسفر لمدة ٤٨ ساعة يرى خلالها طفله المريض ، وبعدها يعود إلى الجحيم !

هذه الرحلات الخاطفة ، التى كان يتحايل للوصول إليها ، كانت تمنحه إحساسًا ممتعًا لسببين :

السبب الأول كما يقول بروتس : كنت أشعر أنى قادر على فعل الشىء الذى تمنعنى السلطات من فعله ، كنت أحس أنى أخالف تعليمات السلطة !

أما السبب الثانى – وهو الأهم – فقد كانت هذه الرحلات عونًا كبيرًا له فى استمرار قيادته للنشاط السياسى السرى المناهض للسلطة العنصرية .

ولكن فى رأى نقاد الأدب ، أن هذه الرحلات الخاطفة ، هى التى صقلت

الشاعر دنيس بروتس . فخلال الرحلات المتعددة ، بدأت أفكاره تتبلور بوضوح ، وبدأ الشاعر يحدد لنفسه الشكل النهائى الذى يضع فيه مضمون أفكاره الثورية . فى ذلك الوقت كانت الأقلية البيضاء تسيطر على كل شيء ، وتقمع الأغلبية الساحقة من الملونين . وأمام السيطرة والقمع ، كان الأفريقيون لا يملكون إلا أن يرقبوا الأمور فى أسى وغضب . وبدأ الغضب يتحول إلى تمرد خفى . فى ذلك الوقت كانت قد بدأت حركة المقاومة فى جنوب أفريقيا واتخذت المقاومة لنفسها شعار « الإبهام المنتصب » لهذا نرى قصائده – خلال تلك الفترة – حافلة بالاصطلاحات الكودية والرمز . رموز للإبهام . وللسيارات المدرعة ، ورجال الشرطة ، والأنوار الكاشفة ، وللبنادق ، والمدافع الرشاشة .. إلخ .

عن هذه المرحلة يقول الشاعر :

« كنت أضمن قصائدى كل ما تواجهه حركة المقاومة فى بلدى . كنت أضع هذا فى نسيج القصيدة ذاتها . وكان يقال إن قصائدى معقدة متشابكة . ومع كل قصيدة جديدة كنت أشعر أننى أقترب من السجن . فلم يكن من المعقول أن أستمر دون أن أضبط متلبسًا ذات يوم . وكنت أتوقع أن مصيرى سيكون فى سجن جزيرة روبين بالذات . فهو أسوأ سجون كيب تاون ! »

وفعلا ..

صح ما توقعه الشاعر .

فى يوم من ايام عام ١٩٦٣ اعتقل بروتس .

السبب ..

حضوره أحد الاجتماعات ، مخالفًا الأوامر السابق صدورها من السلطات بتحريم حضوره أى اجتماعات سياسية أو اجتماعية .

بعد فترة .. أفرج عنه بكفالة مائتى جنيه .

وتسلل بروتس إلى « سوازيلاند » . ومن هناك حاول أن يسلك طريقًا للهرب إلى « بادن بادن » فى المانيا ، للقاء اللجنة التنفيذية الأولمبية الدولية . ولكن البوليس السرى البرتغالى قبض عليه عند حدود « موزامبيق » . وأعادوه إلى جنوب أفريقيا وسلموه للبوليس هناك .

فى أثناء الاعتقال ، أدرك بروتس أنه اعتقل فى صمت ، ولا يعلم أحد بالمصير الذى انتهى إليه . وكان لابد له من الخروج من هذا المأزق . فأقدم على محاولة مستميتة للهروب . وفى أثناء المحاولة أصيب فى أحد شوارع جوهانسبرج برصاصة فى ظهره . واعتقل من جديد . ووضع فى المستشفى تحت الحراسة لعلاج إصابته . بعد الشفاء . قدم للمحاكمة . وصدر عليه حكم بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سنة ونصف فى السجن اللعين . سجن جزيرة روبين . أسوأ سجون كيب تاون على الإطلاق .

الرحلة من جوهانسبرج إلى سجن جزيرة روبين طولها ألف ميل . تستغرق يومين . عن هذه الرحلة كتب قصيدة بعنوان « فى الطريق » يقول فيها :

ستون محشورون فى عربة نقل
منهم القاعدون والمقرفصون
والجاثمون والمتربعون
وقد سخنت اكتافهم
وأردافهم ومرافقهم وركبهم
معصورين ، مترجرجين فى غبش السحر
فى أوضاع معوجة
اضطرتهم إليها سلاسل الحديد

وهم يلغطون
ويتضاحكون ويتبادلون الذكريات
يتباسطون
ليدخل بعضهم السرور على بعض .
ويروون الحكايات
متواصين بالشجاعة
أو صامتين لانقباض قلوبهم
من التشاؤم وتوقع الشر .
وقد توهجت حافة السماء فجأة
بالضرام والدم
على حين نورت فى غسق السحر
الوجوه
المتعاطفة المتحابة

بعد انتهاء فترة العقوبة أفرج عنه يوم ٨ يوليو ١٩٦٥ وسمحت السلطات له ولزوجته ولأولاده السبعة بمغادرة جنوب أفريقيا بإذن خروج . وهذا الإذن وثيقة تحول دون عودته مرة أخرى . وسافر بروتس مع أسرته إلى لندن ليعيش فى المنفى . وبعد أن قضى هناك عدة سنوات ، سافر إلى الولايات المتحدة ، ليقوم بالتدريس بجامعة « نورث ويسترن » فى « إيفانستون » بولاية الينوا الأمريكية .

* * *

فى عام ١٩٧٣ سعدت بلقاء دنيس بروتس فى مكتبى عند زيارته السريعة للقاهرة وكانت هذه القصيدة – « فى الطريق » – معدة للنشر بمجلة لوتس للأدب الأفريقى الآسيوى ، ناقشته فيها ، فأخذ يروى ذكريات تلك الأيام ...

قال :

« فى البداية يعرونك تمامًا ، يخلعون ملابسك قطعة وراء قطعة حتى تصبح عاريًا فى طابور . ثم يُوزع الحراس على كل سجين (بنطلون شورت) وصديرى صغير ، وبعدها يقيدونك بالسلاسل من يديك وقدميك ، كل الطابور فى سلسلة واحدة . ويدفعون الطابور المسلسل للمسير بأقدام حافية حتى اللورى الذى يحشر فيه كل المساجين وتبدأ الرحلة الحزينة مع الفجر ، يحرس اللورى بوليس سرى . ورجال شرطة فوق موتوسيكلات . وشرطة فى سيارات مدرعة » .

ويضحك بروتس فى مرارة ويقول :

« فى كل مرة أتذكر هذه الصورة .. أتساءل :

هل كنت أستحق حقًا كل هذه الحراسة الهائلة ؟! »

الفترة التى قضاها بروتس فى السجن كانت نقطة تحول فى شعره . فبسبب محاولتيه السابقتين للهروب ، وضع فى الحبس الانفرادى ! وهو يصف الحياة فى الزنزانة بقوله :

« كادت الوحدة تودى بعقلى . كنت على حافة الجنون . يمضى اليوم ، دون أن أرى أحدًا ، أو أتحدث مع أحد . قصعة الثريد – طعامى – تقدم لى من تحت الباب ثلاث مرات كل يوم . ولكى لا أجن ، كان لابد أن أنظم وقتى . مثلا أقضى ساعة أفكر فى الأدب والثقافة . وساعة أخرى أفكر فى السينما .. وهكذا . وذات مرة أخذت أفكر فى قصائدى ! قضيت ساعات طويلة أفكر فى هذا الأمر . وانتهيت إلى إحساس بالفزع ، كانت قصائدى تبدو أمامى كشىء عديم القيمة . لا يصلح إلا لسلة القمامة ، بل لقد مرت على لحظة فكرت فيها فى الانتحار خجلا مما كتبت ظنًا منى أنه شعر !! »

ويضيف الشاعر دنيس بروتس قائلا :

« وذات ليلة ، فى الظلام الحالك ، قلت لنفسي لابد من الوصول إلى قرار حول الشعر الذى أكتبه ، لقد كتبت أشياء رديئة حقًا . ولكن ، هل لدى شيء أفضل من هذا ؟، لماذا لا أجرب البدء من جديد ؟ لم يكن أمامى سوى طريق من اثنين ، إما أن أكف عن كتابة الشعر ، وإما أن أكتب بطريقة جديدة . وكتبت رسالة لزوجتى وقلت لها : أرجوك أن تحرق وتمزق كل قصائدى . وأرجو ألا ينتشر شيء منها . إننى سأبدأ من جديد » .

هذا ما كتبه بروتس لزوجته ، وهو لا يدرى أن أول مجموعة من قصائده تحت عنوان « صفارات إنذار .. أقدام .. أحذية » ، قد طبعت ونشرت عقب دخوله السجن .

وفعلا .. بدأ بروتس يكتب قصائده بشكل جديد . لقد ابتعد عن زخرف الكلمة . لم يكن يكتب للشعراء . أو لهواة الشعر . أو لدارسى الأدب بالجامعات ، وإنما كان ينظم الشعر للإنسان العادى البسيط . لسائق الأوتوبيس مثلا . أو لشيال محطة سكة حديد . أو خادمة فى مطعم وهو عن هذا يقول :

« إذا كان هؤلاء يفهمون ما أكتب . فأنا أكتب شعرًا جيدًا . يجب أن أدع الكلمة تفعل فعلها فى عقل القارئ » وهكذا تحولت قصائده من التعقيد والتشابك .. إلى البساطة . إلى غاية البساطة .

فى عام ١٩٦٨ صدرت مجموعته الثانية « قصائد إلى مارتا » وهى قصائد كتبت فى اثناء فترة السجن وفترة تحديد الإقامة وفى المنفى .

مجموعة « قصائد إلى مارتا » لها قصة ..

ففى سجن جزيرة روبين ، كان محظورًا عليه أن يكتب شيئًا يمكن أن ينشر . والقصيدة – بلا شك – من الأشياء التى لا تنشر . وكان لابد أن يجد طريقة

لتهريب قصائده إلى خارج السجن . واستطاع أن يخدع إدارة السجن بكتابة قصائده على شكل خطابات إلى « مارتا » زوجة أخيه . وكان أخوه قد اعتقل ايضًا ، وسجن فى جزيرة روبين . معظم القصائد تدور حول تجربته فى السجن اللعين .

وفى عام ١٩٧٠ صدر له « أفكار خارج الوطن » يضم قصائد يستجوب فيها أفريقيا ، ويستجوب نفسه أيضًا .

ثم صدر له « قصائد فى الجزائر » وهو ديوان صغير يصور فيه انطباعات زيارته للجزائر . من بين القصائد « فى الحى الشعبى وحده » يقول :

فى القصبة ، فى الحى الشعبى وحده
فى دروبه الضيقة المنحدرة ذات الدرج
والمكتظة بالحوانيت والبيوت والممرات المتعرجة
حيث يمر السائر بالفضلات والأولاد الصغار
والعجائز المتشبثات بالحياة ..
فى القصبة ، فى الحى الشعبى وحده
حيث المبانى التى قصفتها الطائرات
لا تزال منبعجة البطون متهدمة الأركان
شاهدًا صامتًا يذكر بفظائع الفرنسيين فى الجزائر

* * *

فى القصبة ، فى الحى الشعبى وحده
تجد القلب الصامد الرابط الجأش ، الصعب المسالك ،
القلب الصلب الذى لا يكسر
قلب المقاومة حق المقاومة

* * *

قصائد بروتس ، نشرت بمعظم مجلات وصحف أفريقيا ، والمجلات المهتمة بأفريقيا التى تصدر فى أوروبا وأمريكا . إن قصائده دعوة متحركة إلى العدل . تكتسب طابعها من الحقيقة الماثلة من أن العدل مازال بعيدًا عن اليوم بعده عنه فى أى وقت مضى . ومع ذلك ، فإن بروتس لا يفقد الأمل أبدًا . إنه مؤمن بأن الفجر سوف يشرق ذات يوم . فى نغمة مشرقة يحتفل الشاعر — فى قصيدة قصيرة جميلة — بالبحر والشمس آلهة الوثنيين الجدد . القصيدة بعنوان « على الشاطىء » يقول فيها :

السماء الزرقاء زرقة البحر
والبحر الأزرق زرقة الصلب
يجيشان فى اضطراب تكعيبى
يتحللان ، يعاودان التشكل فى الضوء السائل
وأوزان النسيم الحاد حدة الرمل
كذلك يكتب « ريفاربين » بإنسانية وعطف فى يديها ..
منطويتين على حياتها الطويلة ، تنفحان
باللمسات
الراحتان متحققتان ، بدأتا
تمحيان
تأخذ المرأة العجوز رأس ولدى
تزن العالم
إزاء صدرها مبتسمة .. وتومئ
بأن الغد سيكون أفضل من اليوم

منذ أعوام تلقيت أحدث كتبه بعنوان « شهوة بسيطة » ، ويضم مجموعة قصائده التى نظمها فى السجن . ومجموعة رسائل إلى مارتا . والعديد من قصائده التى نظمها فى المنفى .

فى قصيدة « شهوة بسيطة » التى جعلها عنوانًا لكتابه ، يقول :

« شهوة بسيطة .. هي كل محنتى
خيط رفيع من عذاب
ينساب خلال عنان مكبوح
بعد أن يكون الجلد قد استهلك
من الإرهاق فى ممارسة الحب »
« ولكن ..
حديثى ، عن محنة الآخرين ..
الذين تجمدوا ، أو تماسكوا ..
أو تعفنوا فى صدأ أكواخ الجيتو الحقيرة
أتحدث عن محنتهم الصامتة
التى لا يجرءون على البوح بها

* * *

هذا دنيس بروتس ، الذى يعمل الآن أستاذًا للغة الإنجليزية بجامعة « إيفانستون » بالولايات المتحدة . وأستاذًا زائرًا بجامعة « دنيفر » الأمريكية . والذى يرأس اللجنة الدولية لمحاربة التفرقة العنصرية فى المجالات الرياضية . وممثل الأمم المتحدة فى اللجنة الدولية للدفاع عن المضطهدين بسبب اللون .

إنه الشاعر الذى يرى فى رأسه ، وفى رأس أى شاعر آخر ، السندان يطرق عليه مصير شعبه من جديد .



فهرس

رقم الإيداع	١٩٨٣/٤٧٣٦
الترقيم الدولى ٩ – ٠٦١٩ – ٠٢ – ٩٧٧ ISBN	

١/٨٣/١٣٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

